محاورات في الدين

تأليف

الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفى١٢٩٧هـ

مؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم / ديوبند

تعريب

محمد ساجد القاسمي

أستاذ الأدب العربي بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند

أكاديمية شيخ الهند

الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند

سلسلة مطبوعات الأكاديمية: ٤٦

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٣٢هـ = يوليو ٢٠١١م

أكاديمية شيخ الهند

الجامعة الإسلامية دارالعلوم / ديوبند ، الهند

الرمز البريدي : ٢٤٧٥٥٤ – الهاتف ٢٢٢٤٢٩-٠١٣٣٦-٠٠٩١

SHAIKHUL HIND ACADEMY

DARUL ULOOM, DEOBAND-247554 (INDIA)

Ph: 0091-1336-222429

E-mail : mohtamim@darululoom-deoband.com

تقـــــديم

بقلم: **فضيلة الشيخ المفتي أبوالقاسم النعماني/ حفظه الله**
رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند بالهند

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

فيَسُرُّنا جدًّا أن نُقَدِّم إلى قُرَّاء العربيّة كتابًا قيّمًا منقولاً من الأردية إلى العربية ، لصاحبه الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م = ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) مؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند بالهند، بعنوانه العربيّ: «محاورات في الدين ».

وهذا الكتاب الذي نَعْتَزُّ اليوم بوضعه بين يدي القراء يرجع سببُ تأليفه إلى أنه عَقَدَ يوم ٧/ مايو ١٨٧٦م الموافق ١٢/ ربيع الثاني ١٢٩٢هـ كلٌّ من الهندوسي «المنشي بياري لال» من سكان قرية «تشاندافور» بمديرية «شاه جهان فور» بالهند ، والقس «نولس» اجتماعا باسم «معرض معرفة الذات الإلهية » . وذلك بقرية «سربانغ فور» الملاصقة لـ «تشاندافور» المذكورة . ونشر في

أنحاء المنطقة كلها إعلانات مطبوعة بذلك ، دعا من خلالها علماء كل ديانة للمشاركة فيه وطرح دياناتهم ودلائل حقيّتها .

و« معرض معرفة الذات الإلهية » كان جزءًا من مُخَطَّطَات التبشير المسيحي؛ حيث عُقِدَتْ اجتماعاتٌ لمناقشة الديانات خلال فترات في عدد من الأمكنة. وكان من فضل الله أنَّ علماء الإسلام هم الذين حقَّقُوا الانتصار في كل منها .

وقد أبلغ مسلمو مدينة «شاه جهان فور» ومدينة «بريلي» الإمامَ محمد قاسم النانوتويّ بموعد انعقاد المعرض المشار إليه ، مُلِحّين عليه لمشاركته ؛ فتَعَرَّفَ – رحمه الله – على الموقف وحقيقة الأمر بالمراسلة، ثم عزم على حضوره، وقد حان موعدُه ٧/ مايو ١٨٧٦م.

خرج – رحمه الله – مع تلاميذه: الشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ رحيم الله البجنوري، في ٥/ مايو بعد صلاة العشاء. ووصلوا محطة دهلي، كما وصلها على الميعاد السيد أبوالمنصور الدهلوي رأس المناظرين ومعه السيد أحمد علي الدهلوي، ومير حيدرعلي الدهلوي، فأصبحوا لفيفًا من العلماء، وركبوا جميعا القطار في الحادية عشرة، ووصلوا «شاه جهان فور» عصر يوم السبت٦/ مايو.

حضروا الاجتماع وقاموا بفعالياته ومداولاته، وكان له – رحمه الله– القدح المعلى فيها. ألقى – رحمه الله – كلمته الضافية في أهمية

المعتقدات في الدين، وإثبات التوحيد، وذم الإشراك بالله، والرد على ألوهية عيسى عليه السلام، وإبطال عقيدة التثليث، والاحتياج إلى النبوة، ومكانة الأنبياء، وختم النبوة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وكل ذلك بأسلوب عقلي مقنع، مماجعل المستمعين من أنصاره ومعارضيه يعترفون له بالانتصار العظيم في الاجتماع.

وقد سجل محضرَ الاجتماع كلٌ من الشيخ محمد هاشم علي مدير المطبعة الهاشمية بميروت، والشيخ محمد حيات مدير المطبعة الضيائية بها، وسمياه في اللغة الأردية بـ«كفتكوئ مذهبي» وقاما بطبعه لينتفع به السادة القراء.

ثم أُعِيدَ عقدُ المعرض المذكور في السنة القادمة: يوم ١٩-٢٠/ مارس ١٨٧٧م، وأُصْدِرَتْ إعلانات ولاصقات عن المعرض، ووُجِّهت الدعوة إلى علماء الديانات الذين كانوا قدحضروا المعرض في السنة الماضية.كما تناقلت الصحف أخبار عقد المعرض وأنباءه.

لم يرد الإمام محمد قاسم والشيخ أبو المنصور بالحضور في المعرض في هذه المرة ظنًا منهما أن السفر يكلف مبالغ باهضة، ويؤدي إلى إضاعة الوقت. غير أنه لما انتشر الخبر بأن علماء الهندوس والقساوسة سيحضرون المعرض، و سمعا بهذا الخبرهمَّا بالسفر مخافةَ أن يحمل الناس عدم حضورهما على الإعراض والفرار؛ فسافرا ومعهما نفر قليل من العلماء والمستمعين.

حضروا الاجتماع وساهموا في تحديد شروط المناظرة. واختير

الإمام محمد قاسم والشيخ عبد المجيد ممثلَين من المسلمين. كان للإمام محمد قاسم النصيب الأوفر من المناقشات والمحاورات وإلقاء الكلمة والإجابة عن الأسئلة التي تمَّ طرحُها من قبلي ممثلي الديانات الأخرى. وقد حاز الإمام فخار النصر في هذه السنة كذلك.

ضبط مداولات الاجتماع هذه المرة الشيخُ فخر الحسن الكنكوهي، وسماها بـ«مباحثة شاه جهان فور» وحلاه بحلية الطبع.

هذا وقد بدأ أخونا العزيز الفاضل الشيخ نور عالم خليل الأميني – الكاتب والداعية الإسلامي المعروف ، ورئيس تحرير مجلة «الداعي» العربية الصادرة عن الجامعة وأستاذ الأدب العربي بها – بترجمة كتب مشايخ دارالعلوم/ ديوبند ومُؤَسِّسيها ، إلى العربية على صفحات «الداعي» الغراء ، ثم رَغَّبَ عددًا من خريجي الجامعة من تلاميذه وغير تلاميذه، ليقوموا بمسؤولية تعريب التراث العلمي للمشايخ ، فيكون ذلك سعادةً لهم في الدنيا وذخرًا وأجرًا في الآخرة.

وقد صدر عددٌ من مُؤَلَّفَات علمائنا باللغة العربية عن طريق مجلة «الداعي» واستحسن جميعُ أبناء الجامعة هذا الصنيعَ ، وأجمعوا على تقديم الشكر إلى القائمين بهذا العمل الجليل والجهد النبيل ، وعلى رأسهم الشيخ نور عالم خليل الأميني . وأُعْجِبَ بذلك جدًّا جميعُ مسؤولي الجامعة ، وزفُّوا الدعاء والشكر والتقدير إليهم ،

راغبين رغبةً مُلِحَّةً في الاستمرار في القيام بهذه المسؤولية المُشَرِّفَة .

ونشكرُ الأخ الكريم الأستاذ محمد ساجد القاسمي أحد أساتذة الجامعة الذي تَوَلَّى – على ترغيب من الشيخ نور عالم خليل الأميني – مسؤوليّةَ نَقْل هذين الكتابين: للإمام الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، وسمى ترجمتها العربية «محاورات في الدين». كما نقل قبلهما كتبه المعروفة: حجة الإسلام، و«انتصارالإسلام» و«قبله نما» (ردود على اعتراضات موجَّهة إلى الإسلام). وفقه الله للاستمرارفي نقل التراث العلمي لعلمائنا إلى اللغة العربية.

وجزى الله تعالى أخانا الكريم فضيلة الشيخ بدر الدين أجمل القاسمي عضو مجلس شورى الجامعة ومدير أكاديمية شيخ الهند ، الذي استمرت عنايتُه منذ اليوم الأوّل بطبع وإصدار مُؤَلَّفات المشايخ ، وتشجيع ذوي الأقلام والمُؤَهَّلِين من شباب الجامعة . وقد صدر باهتمامه عددٌ من المُؤَلَّفات القيمة من الأكاديمية . وهذا الكتاب أيضًا يصدر ضمن سلسلة الإصدارات التي تقوم بها الأكاديمية تحت رعايته . فجزاه الله خيرًا .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين .

أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند، الهند

٢٣/ شعبان ١٤٣٢هـ = ٢٦/ يوليو ٢٠١١م

كلمة المترجم

نحمده ونصلِّي على رسوله الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعدُ :

فهذا الكتاب القيِّم المعنْوَن بـ «محاورات في الدين » ترجمة عربية للكتابين باللغة الأردية: «كفتكوئ مذهبي» و «مباحثة شاه جهان فور» لصاحبهما الإمام محمد قاسم النانوتوي مؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند.

وهذان الكتابان محضران لمحاوارت ومناقشات جرت في اجتماعين لمعرض معرفة الذات الإلهية الذي عقده المنشي «بيارى لال» بمساعدة القس «نولس» بقرية «تشاندا فور» التابعة لمديرية «شاه جهان فور» بولاية «أترابراديش» الهندية. والذي حضره علماء الديانات الثلاثة: الإسلام والمسيحية والهندوسية.

عُقِد الاجتماع الأول للمعرض في ٧/ مايو١٨٧٦م ، فحضره الإمام محمد قاسم النانوتوي مع تلاميذه: الشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ رحيم الله البجنوري. كما شارك فيه من علماء دهلي: السيد أبو المنصور الدهلوي، و السيد أحمد علي الدهلوي، ومير حيدرعلي الدهلوي.

وقدكتب محضر هذا الاجتماع كل من الشيخ محمد هاشم علي مدير المطبعة الهاشمية بميروت، والشيخ محمد حيات مدير المطبعة الضيائية بها، وسمياه في اللغة الأردية بـ«كفتكوئ مذهبي» وقاما بطبعه وإخراجه.

كما عُقِد الاجتماع الثاني للمعرض في ١٩-٢٠/ مارس ١٨٧٧م، فشارك فيه علماء المسلمين، وعلى رأسهم الإمام محمد قاسم النانوتوي، والشيخ السيد أبو المنصور الدهلوي. وقدسجل فعاليات ومداولات الاجتماع الشيخُ فخر الحسن الكنكوهي، وسماها بـ«مباحثة شاه جهان فور» .

وهذان الكتابان يشتملان على ماألقى الإمام محمد قاسم النانوتوي من محاضرة، وماأجاب عن أسئلة موجهة إلى الإسلام، وما رد على معتقدات باطلة للديانة المسيحية.

قدقمت بنقل هذين الكتابين للإمام- شأن غيرهما من كتبه المترجمة إلى العربية – بأمر وترغيب وتشجيع أديب العربية الكبير والكاتب الإسلامي المعروف: الشيخ نور عالم خليل الأميني – أستاذ الأدب العربي بالجامعة ورئيس تحرير مجلة «الداعي» الصادرة منها – الذي نشر ترجمتها العربية على صفحات مجلة «الداعي» الغراء في حلقات متتالية بعنوان: «محاورات في الدين». فجزاه الله خيرًا، ومتعه بالصحة والعافية.

وقداتبعت أدب الترجمة العلمية الأمينة الدقيقة في هذين

الكتابين -كغيرهما من الكتب للإمام رحمه الله- محاولاً أن لايتغير مراد المؤلف؛ فهي أقرب إلى الترجمة الحرفية منها إلى الترجمة الحرة.

وأدعو الله جلَّ وعلا أن ينفع به قراء العربية، وييسر لي نقل المزيد من مؤلفات الإمام، ووضع علومه ومعارفه بين أيديهم، فهو الميسر والموفق والمعين.

محمد ساجد القاسمي
أستاذ الأدب العربي
بالجامعة الإسلاميَّة دارالعلوم/ ديوبند
٢٤/ رجب١٤٣٢هـ = ٢٧/ يونيو٢٠١١م

ترجمة المؤلف(*)

(الإمام محمد قاسم النانوتوي/ رحمه الله)

الإمام الجليل، وفيلسوف الإسلام ، والعالم الرباني، والمصلح الكبير، والبطل المجاهد، والمنافح عن الشريعة الغراء شبهات واعتراضات أعداء الإسلام، وناشر العقيدة الصحيحة والذاب عن لجينها غبار البدع والخرافات الجاهلية، ومؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند، وقائد حركة تأسيس المدارس الإسلامية الأهلية في شبه القارة الهندية.

ولادته ونسبه

هو محمد قاسم بن أسد علي بن غلام شاه بن محمد بخش بن علاء الدين الصديقي النانوتوي ، وُلِدَ في أسرة عريقة في المجد والشرف بقرية «نانوته»[1] في شوال ١٢٤٨هـ / مارس ١٨٣٣م . ينتهي نسبه إلى قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(*) بقلم : الأستاذ محمد ساجد القاسمي أستاذ الأدب العربي بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند .

(١) نانوته (NANOTA) إحدى القرى الجامعة التابعة لمديرية سهارنفور ، بولاية أترابراديش ، الهند .

أما أبوه الشيخ أسد علي (١٢٩١هـ / ١٨٧٥م) فكان رجلاً صالحًا، قليل الثقافة كريماً، حسن الخلق مِضيافاً ، يجالس العلماء والصالحين ، وكان يحترف الفلاحة و يمارس أعمال الزراعة .

تعليمه ودراسته

كانت تظهر عليه علائم الذكاء والفطنة منذ بواكير الصبا ؛ فقد تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة في قريته ، ثم نُقِلَ إلى «ديوبند» حيث قرأ كتباً في الفارسية وفي قواعد النحو والصرف على الشيخ مهتاب علي الديوبندي (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) في مدرسته ، ثم حُمِلَ إلى خؤولته في «سهارنفور» حيث قرأ كتبا في الفارسية والعربية على الشيخ محمد نواز السهارنفوري، فلما توفي جده من الأم: الشيخ وجيه الدين عاد إلى قريته .

ثم استصحبه الشيخ مملوك العلي النانوتوي (١٢٦٧هـ / ١٨٥١م) إلى دهلي ، وأسكنه في منزله حيث درس عليه الكافية في النحو، وكتب المنطق والفلسفة . كان منزل الشيخ مملوك العلي النانوتوي بالقرب من مسجد الشيخ نوازش علي الدهلوي، وكان يجتمع فيه جمٌّ غفير من الطلاب ، وكانت تجري بينهم مباحثات ومناقشات علمية ، فكان يساهم فيها ويغالبهم فيغلبهم جميعًا ؛ فطار صيته وعُدَّ طالبًا مبرِّزًا .

ثم ألحقه الشيخ مملوك العلي النانوتوي بالكلية العربية في دهلي، وقال لأستاذه في الرياضيات : لا يهمك شأن الطالب، وأنا

أدرِّسُه بنفسي ، وأمره الشيخ أن يطالع أقليدس بنفسه ويتمـرن عـلى قواعده . فلما إن مضت أيام قلائل حتى أنهى جميع مقالاتـه البـسيطة وأكمل الحساب ؛ مما أدهـش الأسـاتذة والطـلاب جميعًـا . فناقـشه الطلاب وِوجَّهوا إليه أسئلةً فردَّ عليها ردًّا صحيحًا، ثـم طـرح إليـه المنشئ ذكاء الله الـدهلوي (١٣٢٨هــ/ ١٩١٠م) أسـئلةً غايـةً في الصعوبة ، فأجابَ عنها إجاباتٍ صحيحةً ، مما أكسبه شـهرةً كبـيرةً. فلما حان موعد الامتحان السنوي لم يـؤدِّ الامتحـان وغـادر الكليـة خوفًا على نفسه الفتنة وتفاديًا من الإعجـاب بنفـسه ؛ فأسِـف عليـه أسفاً شـديداً أسـاتذةُ الكليـة - لاسـيما «طيلـر» (J.H. TAYLOR) أستاذ اللغة الإنجليزية فيها - الذين لم يعرفوا طبيعة الشيخ في مـسار حياته وأطوارها .

ثـم دَرَسَ الـشيخ الـصحيح للبخـاري، والـصحيح لمـسلم، والسنن للترمـذي، والموطـأ لمالـك، وتفـسير الجلالـين عـلى الـشاه عبدالغني المجـددي الـدهلوي (١٢٩٦هــ/ ١٨٧٨م)، كـما درس السنن لأبي داود، والسنن للنسائي، والموطأ لمالك على الـشيخ أحمـد علي السهارنفوري (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩).

وبايع هو وصديقه وزميله في الدرس: المحدثُ الفقيـهُ الـشيخُ رشيد أحمد الكنكوهي الحاجَ الشيخ إمـداد الله الفـاروقي التهـانوي ثم المكي (١٢٣٣/ ١٣١٧هـ = ١٨١٧/ ١٨٩٩م) وتخرَّجا عليـه في التزكية والإحسان .

مواهبه وأخلاقه

كان غايةً في الذكاء فطينًا ، عالي الهمة جلدًا شـجاعًا، مـبرِّزًا في أقرانه ، حسن الخط . وكان مثالاً في البساطة ، صموتًا مـن غيرعـي، متواضـعًا ، متقـشفًا في المأكـل والمـشرب، ومتخـشنًا في الملـبس والمسكن، وأحـبُّ شيء إليـه الخمـولُ والعزلـةُ ، وأكـره شيء إليـه الصيتُ والشهرةُ ، وكان صـبورًا عـلى المكـروه لا ينـبس فيـه ببنـت شفة، وكان كريمًا سمح اليد مضيافًا .

وقـد أراد أن يعـيش عزبًـا ، ولكـن أبـاه وشـيخه إمـداد الله الفاروقي التهانوي المكي ضغطا عليه؛ فرضي بالزواج .

وكان يُخفِي نفـسه - جُهـدَ طاقتـه - فـلا يُحِـبُّ أن يُـشَار إليـه بالبنان ، ويُعْرَفَ في أوساط الناس بالشيخ أو العالم، وكـان لا يُفتـي بالفتوى ، ولا يؤُمُّ الناس في الصلاة ، فإذا أفتـى كـان لا يوَقِّـع عـلى الفتوى إخفاءً لنفسه . وقد مضى عليه حين من الزمـان ، كـان يكـره فيه أشدَّ الكراهية أن يدعوه النـاس بالـشيخ أو بالعـالم ، فـإذا دعـوه باسمه لبَّى وتهلَّل وجهه فرحًا .

وكان بادئ ذي بدءٍ لا يعظ ولا يخطب بين النَّـاس ، وقـد فتَـقَ لسانَه خطبةٌ ألقاها في «كاندهله» بأمر الشيخ الصالح مظفـر حـسين الكاندهلوي (١٢٢٠هـ/ ١٢٨٣م) .

أعماله ونشاطاته

فلما تُوفِّيَ أستاذه الشيخ مملوك العلي النـانوتوي غـادر منــزله،

وعَمِلَ فترةً مصححًا في المطبعة الأحمدية في دهلي ، وسكن أيامًا في مدرسة دار البقاء بدهلي .

ومن الجدير بالذكر أنَّ أستاذه الشيخ أحمد على السهارنفوري حلّى جِيْدَ الصحيح للبخاري بالهوامش ، وقد ترك - لأمر مَّا - أجزاءً في آخره لم يعلق عليها. وأثناء عمله في المطبعة الأحمدية أمره أستاذه الشيخ أحمد علي السهارنفوري بكتابة الهوامش على الأجزاء الباقية لصحيح البخاري ، فقام به خيرَ قيام . كما عمِلَ مصححًا في كل من المطبعة المجتبائية و المطبعة الهاشمية في «ميروت» (MEERUT)، وكان خلالَ عمله في المطبعة يدرس الطلاب كذلك .

جهاده ضد الإنجليز

انفجرت ثورةٌ عارمة ضدَّ الاحتلال الإنجليزي في الهند، وذلك عام ١٨٥٧م ، وعمت الهند الشمالية ، فوقعت معارك دامية مع الإنجليز ، ومنها معركة «شاملي»[١] التي خاضها الحاج الشيخ إمداد الله وأصحابُه الذين كانوا من كبار العلماء وأولياء الله وعلى رأسهم الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والشيخ الحافظ ضامن الشهيد ، والشيخ منير النانوتوي. وهزموا الإنجليز هزيمةً منكرةً ؛ فاستشاطوا غضبًا ، فدمَّروا قرية «تهانه بهون» وعاثوا فيها فسادًا ، وأعلنوا أن الحاج

(١) شاملي : قرية من القرى الجامعة التابعة لمديرية «مظفر نغر» عُرفت بمعركة وقعت عندها وخاضها علماء ومشايخ ديوبند مع الإنجليز المستعمرين .

إمداد الله وأصحابه أعداء ألِدَّاء للإنجليز وثُوَّارٌ عليهم ؛ فحاولوا القبض عليهم؛ فهاجَرَ الشيخ إمداد الله مختفيًا إلى مكة المكرمة ، وبقي الشيخ محمد قاسم مختفيًا في الهند يتنقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة ، حتى أعلن الإنجليز عن العفو العام عن الثوار والمجرمين . فاستقرَّ مقام الشيخ في وطنه لأيام ، ثم عمل مصححًا في المطبعة المجتبائية بـ «ميروت» .

تأسيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند

انقرضت الدولة المغولية في الهند وطُوِيَ بساطها ، وقامت حكومة الإنجليز على أنقاضها ، وقد ناصبوا العداء للمسلمين فقتَّلوهم تقتيلاً ، وصادروا الممتلكات والأوقاف ، وخرَّبوا دور العلم ومعاهد التعليم ، وبثوا القساوسة والمبشِّرين في طول البلاد وعرضها ليحولوها دولةً مسيحيةً ، وأصبح أمر المسلمين في هرج ومرج .

هنالك قامَت طائفة من العلماء الغيارى المخلصين ، وقد أهمَّهم أمر الإسلام في هذه البلاد والحفاظ عليه ، ففكروا وفكروا حتى ألقى الله في رُوعِهم فكرةً عظيمةً ، وهي فكرة تأسيس المدارس الإسلامية الأهلية في مشارق البلاد ومغاربها ، فتقدموا إلى مجال العمل، وكان الشيخ رأسَهم وواسطة عقدهم ؛ فأسَّسُوا بأيديهم المباركة مدرسة عربية في ديوبند ، وهي تُعرفُ الآن بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند .

من المآثر الخالدة للشيخ هذه الجامعة التي أُسِّسَت على التقوى من أولِّ يومها والتي قامت – ولا تزال – بالحفاظ على الإسلام وهوية المسلمين في هذه البلاد ، وأدت ولا تزال وستظل تؤدي خِدماتٍ جليلةً نحوهم .لم تقتصر خدماتها وبركاتها على شبه القارة الهندية فحسب بل عمَّت العالم كله . واستعراض خدماتها وأعمالها الجليلة يحتاج إلى مجلدات كبار .

كان الشيخ حركةً مستقلةً لتنفيذ هذه الفكرة النبيلة ، فكرة تأسيس المدارس والكتاتيب الإسلامية الأهلية ، فأَسَّسَ نحو عشر مدارس في المدن المختلفة للمناطق الشمالية في الهند .

حركة تزويج الأرامل

كان للشيخ علاقة وطيدة بالمشايخ الكباركالشيخ الحاج إمداد الله التهانوي المكي، والشيخ الصالح مظفرحسين الكاندهلوي، فكان يختلف إليهم ويجالسهم ويتأثربهم، فورثهم دعوتهم و إحياء السنة النبوية والعمل بها، وإزالة البدع والخرافات الجاهلية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي الهندي بحكم مجاورة الهندوس. ومن التقاليد غير الإسلامية التي سادت المجتمع الإسلامي الهندي عدم تزويج الأرامل. كان الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي يسعى للقضاء على هذا التقليدغير الإسلامي ويقوم بتزويج الأرامل. فكان لمساعيه آثار إيجابية في المجتمع. ورثه الشيخ محمد قاسم العمل بالسنة النبوية ومحاولة القضاء على التقاليد الجاهلية، ومنها

عدم تزويج الأرامل، وقد بدأ الشيخ محمد قاسم هذه الحركة بإرضاء شقيقته الأرملة – التي كانت تكبره وكانت مسنة– للزواج، فكان لذلك تأثير كبير على الناس، فبفضل محاولته المكثفة المخلصة زال التقليد من المجتمع وأصبح نسيًا منسيًا.

تبرعاته في الحرب البلقانية

كان الشيخ يشاطر آلام الأمة الإسلامية وأحلامها، فإذا سمع مصيبة حلت بساحتها في أي بقعة من بقاع العالم، أصبح يتقلب على أحرَّ من الجمر شأنَ المؤمن الحق ، كما قال الرسول ﷺ :« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى ».

فلما قامت الحرب البلقانية بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٤م، وتناهت إليه أنباء الحرب وما لحق المجاهدين الأتراك من خسائرفادحة في الأرواح والممتلكات، تألم هو وأصحابه المسؤولون في الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند أشدَّ التألم، و أزمعوا على أن يساعدوا إخوانهم الأتراك بأنفسهم وأموالهم. فجمعوا مبالغ باهظة لهم ، كما تبرع الشيخ بحلي زوجه كلها لهم، وبعثوا بهذه المبالغ عن طريق السيد حسين حسيب سفير تركيا لدى مومبائي بالهند إلى الخليفة العثماني في إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية، فتلقاها المسؤولون فيها، وأرسل إبراهيم أدهم باشا رسالة شكر إليهم.

كما سافر هو وأصحابه الذين بلغ عددهم مئة رجل في قافلة

إلى الحجاز ليحجوا، ثم يتوجهوا إلى البلقان للوقوف بجانب الجيش العثماني والجهاد معه ضد الجيش الروسي. غير أنه قدحالت عراقيل ومعوقات دون الوصول إلي البلقان، فعادوا إلى الهند.

مناظراته مع القساوسة وعلماء الهندوس

ولما كان الشيخ مقيمًا بمدينة «ميروت» بلغه أنَّ القساوسة انتشروا في مدينة دهلي يلقون خطبًا عن ديانتهم أمام الناس ويُضِلُّونهم ؛ فأمر الشيخ تلاميذه بأن يذهبوا إلى دهلي ويلقوا خطبًا كذلك ، ويساعدوا من يحاور القساوسة ويناظرهم من علماء المسلمين. تواعد القساوسة وعلماء المسلمين على المناظرة وضربوا الموعد ، فذهب الشيخ بنفسه وناظر القس «تاراجند» فأبكمه وأخرسه .

وفي ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م أقام المنشئ «بيارى لال» اجتماعًا باسم «معرض معرفة الذات الإلهية» على شاطئ نهر «غَـرًّا» في قرية «تشاندافور» في مديرية «شاه جهان فور» بولاية أترابراديش الهندية، وكان المنشئ «بيارى لال» يميل إلى المسيحية ويجالس القس «نولس» فعقد اجتماعًا بمشورته ومساعدته ، ودعا إليه القساوسة وعلماء الهندوس وعلماء المسلمين لمناقشة الديانات . فأبلغ مسلمو مدينة «بريلى» والقرى المتجاورة لها الشيخَ ، ودعوه للحضور في الاجتماع؛ فلبى دعوتهم، وقد رافقه في سفره تلاميذُه : الشيخ محمود حسن الديوبندي ، والشيخ فخر الحسن الكنكوهي ، والشيخ رحيم الله

البجنوري وغيرهم من علماء دهلي ، كالشيخ السيد أحمد علي الدهلوي، والشيخ أبوالمنصور الدهلوي . وحضر الاجتماع وشارك في المناقشة ، وألقى خطبةً بليغةً في الردِّ على عقيدة التثليث والإشراك بالله وإثبات التوحيد ؛ مما أدهش السامعين من أنصاره ومعارضيه ، واعترفوا له بالفضل وغزارة العلم وقوة البيان ونصاعة البرهان؛ فَعَلَت كلمتُه ، وارتفع ذكره ، وصار حديث المجالس والنوادي ، ورجعَ منصورًا موفقاً من الاجتماع .

ثم أُقِيْمَ الاجتماع في السنة القادمة: ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م، فحضره الشيخ في نخبة من علماء المسلمين . قد حضر الاجتماع هذه المرة بالإضافة إلى القساوسة حبرُ الهندوس وصنديدُهم «البانـدت ديانند سرسوتي» الذي كان اخترع دينًا جديدًا مُسْتَمَدًا من الديانة الهندوسية ، وكان يؤمن بالفيدات «الكتب المقدسة لدى الهندوس» ويرى التناسخ . شرح البانـدت في الاجتماع معتقداته باللغة الهندوسية الممزوجة بكلمات اللغة السنسكرتية ، فتصدى للرد عليه الشيخ محمد علي . ثم ألقى الشيخ خطبةً مؤثرةً في مسألة الوجود وإثبات التوحيد . وكان السامعون أثناء خطبته آذانا مصغيةً وقلوبًا واعيةً وعيونًا شاخصةً . ثم ناقش التحريف في الإنجيل ودلَّلَ عليه حتى لاذ القساوسة بالفرار عن الاجتماع تاركين بعض كتبهم .

وكان القساوسة يقولون : «لو آمنّا بخطبةٍ لآمنا بهذه الخطبة التي كانت تأخذ بمجامع القلوب» .

وفي شعبان عـام ١٢٩٥هــ أتـاه النبـأ بـأنَّ البانـدت « ديانـنـد سرسـوتي » ورد ببلـدة «روركـي» (Roorkee) وأخـذ يوجّـه اعتراضات إلى الإسلام ، فإذا تصدّى عالم من علماء المسلمين للـردّ على اعتراضاته لا يلقي له بالاً ولا يرفع به رأسًا ، وإنـما يقـول : «إني لن أناظر إلا الـشيخ محمـد قاسـم» فـدعا مـسلمو بلـدة «روركـي» الشيخ لمحاورته والنقاش معه . وكان الشيخ يعـاني أيامئـذٍ الـسُّعال والمرض الشديدين الذين قدأصاباه خلال عودته من الحج، فاعتـذر إليهم ، ولكنهم مازالوا يُصِرُّون عليه ، فبعث تلاميذه : الشيخ فخـر الحسن الكنكوهي ، والـشيخ محمـود حسن الديوبنـدي ، والـشيخ عبد العدل الفلتي ليستعرضوا الأوضاع ويناظروا الباندت إن رضي هو بالمنـاظرة معهـم . فـذهبوا إلى « روركـي » وقـابلوه وطـالبوا أن يسمع هو منهم إجابات عن اعتراضـاته ، ولكنـه لم يـرضَ بالـسماع منهم والمناقشة معهم ، وقال : «إن حضر الشيخ محمد قاسـم أناقـشه وأناظره» فرجعوا إلى ديوبند ، وأخبروه بالخبر .

ثارت فيه الغيرة على الإسلام وهو طـريح الفـراش ، واسـتعدَّ للسفر رغم مرضه وضعفه الشديدين ، ووصـل « روركـي » ودعـا الباندت إلى المنـاظرة واسـتماع الـردود عـلى اعتراضـاته عـلى رؤس الأشهاد .

اختلـق البانـدت أنواعًـا مـن المعـاذير ، وطـوى كـشحه عـن المناظرة، حتى ولّى هاربًا مختفيًـا . مكـث الـشيخ في بلـدة «روركـي»

نحو سبعة عشر يومًا ، وألقى على رؤس الأشهاد خطبًا ردَّ فيها عـلى الاعتراضـات التـي أثارهـا البانـدت ضـدَّ الإسـلام . ثـم عـاد إلى «ديوبند» ومكث فيها أيامًا، ثم ذهب إلى «نانوته» وألَّـفَ «قبلـه نـما» (استقبال الكعبة: حقيقته ومعناه) و «انتصار الإسـلام» (ردود عـلى اعتراضات موجهة إلى الإسلام) في الرد على اعتراضات الباندت .

ثم توجَّه الباندت إلى «مـيروت» في ٣/ مـايو ١٨٧٩م وألقـى فيها عصا تجواله ، وأعاد فيها الاعتراضات نفـسها . أخـبر مـسلمو «ميروت» الشيخ بمقدمه بعد أيام ، فوصل الشيخ مـيروت في ١٠/ مايو ودعاه إلى النقاش والحوار ، فنأى الباندت بجانبه عـن المناقـشة وخرج من «ميروت» مختفيًا كذلك.

ألقى الشيخ خطبًا في ميروت في الرد على اعتراضات الباندت، وقد جمعها تلميذه الشيخ عبد العلي الميروتي في رسالة .

وفاته

توفي بعد صـلاة الظهـر ٤/ جمـادى الأولى ١٢٩٧هــ = ١٥/ إبريل ١٨٨٠م ، وصلّى عليه جمع غفير مـن النـاس ، ودُفِـنَ بقطعـة أرض وقفها صاحبها الطبيب مشتاق أحمد آنذاك ، وعُرِفَتْ بـالمقبرة القاسمية ، وهي تقع في الشمال الغربي للجامعة .

مؤلفاته

كـان – رحمـه الله – عالمًـا ربانيًـا ، عبقريًـا مـن عبـاقرة الأمـة الإسلامية ، وفيلسوفا مـن فلاسـفة الإسـلام . وقـد ابتكـر أسـلوبا

فلسفيًا جديدًا لتفسير الإسلام والرد على معترضيه ، ويتجلى أسلوبه الفلسفي المقنع في مؤلفاته واضحًا جليًا . وقد ترك عدة مؤلفات ورسائل علمية في مختلف الموضوعات، وهي كلها في اللغة الأم : الأردية . وقد قام كاتب هذه السطوربنقل خمسة منها إلى العربية، وهي أهم مؤلفاته التي يسهل فهمها على القارئ : حجة الإسلام ، وانتصار الإسلام (ردود على اعتراضات موجهة إلى الإسلام) و«قبله نما» (استقبال الكعبة: حقيقته ومعناه) و «كفتكوئ مذهبي» و «مباحثة شاه جهان فور» (محاورات في الدين).

وفيمايلي قائمة مؤلفاته ورسائله:

١ - آبِ حياة (ماء الحياة)
٢ - تقرير دل بذير (محاضرة في فلسفة الإسلام)
٣ - تنوير النبراس على من أنكر تحذير الناس
٤ - رسالة جزء لا يتجزأ بعنوان: «كلمة الله هي العليا»
٥ - رسالة شرح حديث: «فضل العالم على أدناكم»
٦ - الأجوبة الأربعون
٧ - الأجوبة الكاملة في الأسئلة الخاملة
٨ - الدليل المحكم على قراءة الفاتحة على للمؤتم
٩ - توثيق الكلام في الإنصات خلف الإمام
١٠ - الأسرار القرآنية
١١ - انتباه المؤمنين

١٢ - تحذير الناس
١٣ - التحفة اللحمية
١٤ - تصفية العقائد
١٥ - محاضرة في إبطال جزء لايتجزأ
١٦ - جواب تركي بتركي(الجواب المفحم)
١٧ - الحق الصريح
١٨ - القصائد القاسمية (ديوان شعره الأردي والفارسي والعربي)
١٩ - مصابيح التراويح
٢٠ - المناظرة العجيبة
٢١ - هدية الشيعة (في الرد على عقائدهم الباطلة)
٢٢ - جمال قاسمي (رسالة علمية)
٢٣ - فيوض قاسمية(مجموع رسائله)
٢٤ - أحكام الجمعة
٢٥ - قاسم العلوم
٢٦ - أين كان الله قبل خلق الكون؟
٢٧ - المكتوبات القاسمية
٢٨ - أسرار الطهارة
٢٩ - فرائد قاسمية (مجموع رسائله)

تلاميذه

لم يدرِّس الشيخ في مدرسة، وإنما عملَ مصححا في مطابع في

«دهلي» و«ميروت» ليكسب لقمة العيش ، وأثناء الفراغ من عمله كان يدرس تلاميذه، كما كان يدرس خلال قدماته ومكثاته في «ديوبند» و«نانوته»، و هكذا قد تلمذ عليه عدد كبير من الناس إلا أنّ أشهرهم ثلاثه : وهم الشيخ محمود حسن الديوبندي ، والشيخ أحمد حسن الأمروهوي ، والشيخ فخر الحسن الكنكوهي ، وهم الذين تبنوا رسالته بعد وفاته في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين .[1]

* * *
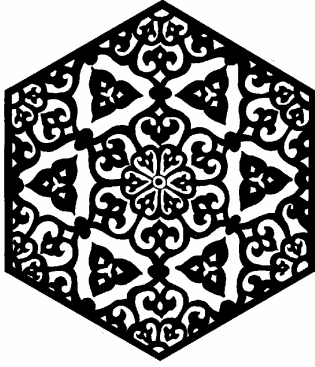
(١) المعلومات مستقاة من عدد خاص لمجلة «صحيفة نور»: قاسم العلوم حضرة مولانامحمد قاسم النانوتوي أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات مرتب: الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي، ط: مكتبة نور، كاندهله، مظفر نغر، يوبي ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

محاورات في الدين

في معرض معرفة الذات الإلٰهية المنعقد يوم ٧/ مايو ١٨٧٦م

في «تشاندافور» بمديرية «شاه جهان فور»

بولاية «أترابراديش» الهند.

مقدِّمـــة

قال شاعر فارسي:

«الشمس تملأ العالم نورًا وضياءً، والعيون في عمى عنها.
والخبر أصبح حَديث المجالس والنوادي، وفي الآذان وقر عنه»

ارتفعت نعرةُ التوحيد منذ بدء الخلق، وما زالت تحيى القلوب وتوقظ النفوس. وظهر دعاة التوحيد في كل عصر ومصر، إلا أنَّ الذي جهر بكلمة التوحيد في العهد الأخير ودعا إلى عبادة ربه، وأيقظ الناس من السبات العميق، يجب الاعتراف بصدقه وحقانيته، كما يجب الإقرار بالتوحيد على كل ذي قلب سليم وعقلٍ مستقيم.

إلا أنَّ بعض العيون تحتاج إلى المنظار، وبعض الآذان إلى الصوت العالي، إذن فلا ينبغي ألا نقدِّم إلى الباحثين والطالبين ذلك المنظار الروحاني والصوت الرباني الذي أَسْمَعَ الآذانَ، وكشفَ الغطاءَ عن العيون، وأرشد العقول، وهدى النفوس.

على هذا فالعبد العاصي الراجي لمغفرة ربه محمد هاشم علي – مدير المطبعة الهاشمية بمدينة «ميروت» – ومحمد حيات – مدير المطبعة الضيائية بها – يُقَدِّمان إلى طالبي الحق ومحبيه تفاصيل ما جرى في معرض معرفة الذات الإلهية كاملاً غير منقوصٍ.

واستخدمنا لتفصيل الإجمال أداة التفسير تقريبًا إلى فهم القراء.

انعقاد معرض معرفة الذات الإلهية

أراد القس «نولس» الإنجليزي أحد القساوسة في مدينة «شاه جهان فور» بولاية «أترابراديش» الهندية، والمنشئ «بيارى لال» أحد أتباع الفرقة الكبيرية الهندوسية[١] ومن سكان قرية «تشاندافور» التابعة لمديرية «شاه جهان فور» أن يعقدا معرضًا لمعرفة الذات الإلهية في قرية «تشاندافور» الواقعة على شاطئ نهر «غرّا» على بعد ٢٤ كلو ميترًا من مدينة «شاه جهان فور» (بولاية «أترا براديش» الهندية). وذلك في ٧/ من مايو ١٨٧٦م، و قد أُعْلِنَ عن المعرض في المناطق كلها.

البحث عن الدين الحق

كان الغرض من وراء عقد هذا المعرض هو البحث عن الدين الحق، كما كان الهدف من وراء الإعلان أن يحضر المعرضَ علماءُ كل دينٍ ويقدّموا البراهين والأدلة على صدق و حقانية دينهم.

رسالة إلى الشيخ محمد قاسم النانوتوي

أَرْسَلَ الشيخ محمد منير[٢] – المدرس بالمدرسة الحكومية بمدينة

(١) فرقة هندوسية تنتمي إلى «كبير» وتتبعه في الأعراف والتقاليد. ولد صاحبها «كبير» عام ١٤٦٨م ومات ١٥١٨م، ودفن بـ«مكبر» بمديرية «بستي» بولاية «أترابراديش» الهند.

(٢) محمد منير بن لطف علي النانوتوي، وُلِدَ سنة ١٢٤٦/٤٧هـ = ١٨٣١م، أخذ العلم عن الشيخ المفتي صدر الدين آزرده، والشيخ الشاه عبد الغني المجددي، وساهم في كفاح تحرير الهند عام ١٨٥٧م، وشهد معركة «شاملي» التي خاضها كبار العلماء ضد الحكومة الإنجليزية. فلما أعلنت الحكومة الإنجليزية عن العفو العام عمل مدرساً في كلية «بريلي»، ثم استقال من وظيفته، ←

«بريلي» – رسالةً من قِبَل الشيخ إلهي بخش المعروف بـ«الشيخ رنكين البريلوي» الذي يعمل نشيطاً ليلَ نهارَ في الرد على المسيحية – إلى الشيخ محمد قاسم النانوتوي يُخْبِرُه عن الإعلان عن انعقاد المعرض، ويدعوه للحضور فيه على الميعاد؛ فرَدّ الشيخ على الرسالة: «إنه لم يقْطَعْ أمرًا الآن» إلا أنه أرسل رسالةً إلى الشيخ محمد منير يستفسره عن شأن الحوار والمناظرة و موضع انعقاده.

لم يتلقَّ الشيخ أيَّ ردٍّ على رسالته، إلا أنَّ رسالةً وصلت إليه من مدينة «شاه جهان فور» تدعوه لحضور المعرض. فما إن تلقَّاها الشيخ حتى خَرَجَ من قريته «نانوته» ماشيًا على قدميه إلى «ديوبند» حيث مكث ليلةً، ثم توجَّه إلى «مظفر نغر» وأقام بها ليلةً، وأخرى بـ«ميروت» حتى وصل «دهلي». تلقى الردَّ على رسالته المرسل إليه من قبل الشيخ محمد منير الذي كتب فيه عن الشيخ عبد الحي المفتش بمدينة «شاه جهان فور» أنه قال: «هذا خبر لا يُوْثَقُ به فلا حاجةَ للعلماء إلى حضور المعرض». ففترت إرادته، إلا أنه أخذًا بالحيطة أرسل رسالةً إلى «شاه جهان فور» جاء فيها: «مالكم تدعونني لحضور المعرض وينهاني الشيخ محمد منير؟ فأنا أقدِّم رجلاً وأؤخر أخرى، فأَخْبِرُوني عن الأمر بفصه ونصه».

← وعيِّن رئيسًا للجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند وظل يضطلع بأعباء رياسة الجامعة إلى ١٣١٣هـ = ١٩٩٤م. (قاسم العلوم الشيخ محمد قاسم النانوتوي للشيخ نورالحسن راشد الكاندهلوي ص:٣٣٦، مكتبة نور، كاندهله، مظفرنغر، أترابراديش، الهند ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)

الرحلة إلى شاه جهان فور

تلقى برقيةً كردٍّ على رسالته في ٤/ مايو وكان فيها: «يجب حضور هذا المعرض» ثم وصلت رسالة كان معناها: «أخطأ الشيخ في خبره. فَاحْضُرْ أنت واستصحب الشيخ السيد أبا المنصور[١]؛ لأنَّ القس «نولس» الذي هو خطيب سليط اللسان يزعم أنَّ الإسلامَ ليس بشيء بالنسبة إلى المسيحيّة» فصحَّت إرادة الشيخ محمد قاسم، فخرج بعد العشاء في ٥/ مايو مع أصحابه: الشيخ فخر الحسن الكنكوهي[٢]، والشيخ محمود حسن الديوبندي[٣]، والشيخ رحيم الله

(١) السيد أبو المنصور بن الشيخ السيد محمد علي الناكفوري الدهلوي (١٢٣٧-١٣٢٠هـ/ ١٨٢٢-١٩٠٢م) أخذ العلم عن أبيه وجده، ودرس مذهب الشيعة على علمائه في لكناؤ سبع سنوات، كما قرأ الإنجيل وغيره من الكتب على القس المعروف وشارح الكتاب المقدس: «إيل إسكات»، عالم باللغات: العربية والفارسية والهندوسية والإنجليزية والعبرية، واسع الدراسات واع لما درسه في ذاكرته. ناظر القساوسة فأفحمهم وبكتَّهم، صحب الإمام محمد قاسم النانوتوي في مناظرة «شاه جهان فور». واعترافاً بفضله وبراعته في الرد على المسيحية خلع عليه علماء عصره لقب «إمام فن المناظرة». له مؤلفات قيمة تربو على مئة. (المصدر السابق ص:٢٠٩).

(٢) الشيخ فخرالحسن بن عبد الرحمن الأنصاري الكنكوهي المتوفى ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م، أخذ العلم عن الفقيه المحدث الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، ثم التحق بدارالعلوم بديوبند وتعلّم فيها، كما درس كتبا مهمة على الإمام محمد قاسم النانوتوي، كان من أخص تلاميذه وأبرهم، لازمه في حله وترحاله، وقام بإعداد وإخراج رسائله ومؤلفاته. ناظر علماء الهندوس وحاورهم. له تعليقات على كل من السنن لأبي داود وابن ماجة. توفي بمدينة كانفور. (المصدر السابق ص:٢٢٨)

(٣) الشيخ محمود حسن بن ذوالفقار علي العثماني الديوبندي المعروف بـ«شيخ الهند» (١٢٦٨-١٣٣٩هـ/ ١٨٥١-١٩٢٠م) أخذ العلم عن الشيخ ملا محمود الديوبندي والشيخ محمد قاسم النانوتوي وتخرج في دارالعلوم بديوبند. عين فيها مدرسًا، ثم تولى رياسة هيئة التدريس ومنصب شيخ الحديث بها. تخرج عليه كبار العلماء وأفاضلهم. قاد أكبر حركة سرية في عصره لطرد ←

البجنوري ووصلوا المحطة، كما وصل على الميعاد السيد أبوالمنصور رأس المحاورين والمناظرين، ومعه السيد أحمد علي الدهلوي، ومير حيدر علي الدهلوي، فأصبحوا لفيفًا من العلماء وركبوا جميعًا القطار في الحادية عشرة، ووصلوا «شاه جهان فور» عصر السبت ٦/ مايو.

بساطة الشيخ وتواضعه

أراد الشيخ أن يُخْفِيَ نَفْسَه بأن يقضي الليلة في الخان، ويحضر مجلس الحوار والمناظرة صباحًا مبكِّرًا؛ فترك زملاءَه، واستصحبَ الشيخ محمود حسن، وتوجَّهَ إلى المدينة مستخفيًا، وأقام بالخان، وقد بلَغَ خبره أناسًا من المدينة، فذهبوا إلى الخان، وأصروا عليه بأن يذهب إلى منزلهم ففعل.

لم يكن هذا الحوار والمناظرة المزمع عقده في مدينة «شاه جهان فور» نفسها، وإنما كان في قرية «تشاندافور» التي تبعد عن المدينة نحو ٢٤ كلو ميترا، وعاقد هذا الحوار والمناظرة كان المنشئ «بيارى لال» أحد أثريائها، وهو الذي وفّر للمشاركين فيه الطعام والخيام.

صلّى الشيخ الفجر وخرجَ إلى «تشاندا فور» ماشيًا على قدميه،

← الاستعمار البريطاني من الهند والعالم الإسلامي، عرفت بخطة الرسائل الحريرية. انكشف سرها، فاعتقل بمكة، ونفي إلى سجون «مصر» وجزيرة «مالطة» قضى بها ثلاث سنوات ونصف، ثم أطلق سراحه، وعاد إلى الهند. ترجم معاني القرآن إلى اللغة الأردية، وهي خير التراجم، قامت حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله بطبعها ونشرها وتوزيعها في العالم. وله مؤلفات ورسائل قيمة. (المصدر السابق ص: ٢٢٧-٢٢٨).

وكانت الخيام منصوبةً، وكان الشيخ محمد طاهر المعروف بـ «موتي ميان» أحد أمراء مدينة «شاه جهان فور» ومن أسرة العالم الجليل المعروف الشيخ مدن – الذي كان يحتل منصبًا فخريًّا جليلاً في المحكمة – مراقبًا من قِبَلِ الحكومة. انعقد مجلس الحوار في مخيمٍ واسعٍ بحيث وضع فيه مكتب وصُفَّتْ أمامه كراسي في السماطين، وكان الشيخ موتي ميان حَكَمًا، فكتب شروطَ الحوار والمناظرة، وسجَّلَ الأسئلة والردود عليها، كما سجَّلَ أمورًا أخرى.

شروط الحوار

كان من شروط الحوار أن يلقى فريقٌ خطبةً على حقانية دينه، ويقوم فريق آخر يعترض عليه ويردُّ، وكانت مدة الحوار يومين، إلا أنه قبل بدء الحوار بلحظاتٍ أصرَّ الشيخ محمد قاسم على القس بشرط رضا المنشئ «بيارى لال» أن تُوَسَّعَ مدة الحوار إلى ثلاثة أيام، وأن تكون للخطبة خمس عشرة دقيقةً وللمناقشة عشر دقائق، ومالم يُنْهِ رجلٌ خطبتهُ لايقوم آخر يؤيده أو يَرُدُّ عليه.

أبى النصارى أن يرضوا

أراد الشيخ محمد قاسم أن تُوَسَّعَ مدة الخطبة، وقال: إنَّ هذه المدة التي تمَّ تحديدها للخطبة قليلة جدًا لاتكفي لإثبات حقانية الدين، إلا أنَّ النصارى لم يرضوا أصلاً. كان الفرقاء – فيما يبدو – ثلاثة: المسلمين، والنصارى، و الهندوس، إلا أنَّ الحوار في الواقع كان بين المسلمين والنصارى.

دراسة المنشئ «بياری لال» واعتراض علماء المسلمين عليه

قامَ – بادئ ذي بدء – المنشئ «بيارى لال» أحد أتباع فرقة «كبير» الهندوسية ومؤسس المعرض، وقدَّم دراسة تتلخص في أنَّ السيد «كبير» وُلِدَ من زهرة «النيلوفر» وفي مذهبه يُذْكر الله في النوم واليقظة، فاعترض عليه من قِبَلِ أهل الإسلام الشيخ محمد طاهر المعروف بـ«موتي ميان» أمير «شاه جهان فور» ومراقب المعرض: ما المراد بزهرة النيلوفر؟، فأجاب: «ها هي ذي». ثمَّ قال الشيخ نعمان خان: إنَّ الأمور المعنوية لاتُثْبِتُ أفضلية دينٍ ما؛ لأن الباحث عن الدين كيف يعرف أنَّ هذا الدين يشتمل على فضائل معنوية تُعْوِز دينًا آخر. لم يتصدَّ للردِّ على دراسته إلا هذان، لأنَّ دعواه ودليله لم يكونا بمكان يردّ عليهما علماءُ المسلمين والقساوسة، إلا أنَّ بعض الهندوس الذين كانوا ينتمون إلى المذاهب الهندوسية الأخرى ناقشوا المنشئ، ولم يأت ذلك بطائلٍ.

خطبة القس «نولس» على إثبات حقانية المسيحيّة والإنجيل

انتهت دراسة المنشئ «بيارى لال» بعد قليلٍ، ثم قام القس الكبير «نولس» الإنجليزي، وألقى خطبةً طويلة النَّفَس على إثبات حقانية المسيحيّة والإنجيل، وخلاصة ماجاء في خطبته أنَّ الله واحد ودينه واحد؛ فيجب أن يُبَلَّغَ دينُه وتعاليمه وأحكامه كلَّ واحد من النَّاس؛ لأنَّ أوامر الملك تُبَلَّغ رعيتَه وتُطَبَّق في مملكته. فلما رأينا الكتب فما وجدنا كتابًا من الكتب نُشِرَ انتشارًا واسعًا، إلا الإنجيل

والكتب المقدسة، فهي نُقِلت إلى أكثر من مئتي لغة، فكل واحد من الناس يقدر أن يفهمها بسهولة.

على أننا نحن النصارى لسنا كالمسلمين ننشر ديننا بالسيف، وإنما ننشره بالودِّ واللين والعطف.

خطبة الشيخ نعمان القندهاري

فلما انتهت خطبة القس «نولس» قَامَ الشيخ نعمان بن لقمان القندهاري، الذي كان موظَّفًا سابقًا في إمارة «لكناؤ» وكان متقدِّم السن يناهز الستين أو السبعين خفيف الروح فَكِهَ المحاضرة، قليل الثقافة، نشيطاً في الردِّ على النصارى، سمّى نفسه «المدافع عن حظيرة دين محمد ﷺ» وقد نقش هذا اللقب على خاتمه، له مؤلفات في الرد على المسيحية، ويلقي خطبًا ذات هزل و فكاهة، وأسوق لكم بعض الأبيات الهازلة التي جاءت في بعض كتبه. ومعناها: «إنَّ باب محمد – ﷺ – مفتوح على مصراعيه فليدخله من شاء، وإن باب جهنم مفتوح على مصراعيه، فليدخله من شاء. معاذ الله ! تزعمون أيها النصارى أنَّ عيسى – عليه السلام – ابن الله؛ فأخبروني من جَدُّه؟».

وهذه الأبيات تكفي دليلاً على أسلوب خطابته، وهزله وفكاهته.

خلاصة خطبته

قامَ الشيخ نعمان خان الذي دعا نفسه المدافع عن حظيرة دين

سيدنا محمد ﷺ، وكان بيده ورقة أو أكثر من صحيفة «شمس الأخبار»، فبدأ يقرأ منها على رؤس الناس فرِحًا طربًا. وكان خلاصة ما قالَ في خطبته: «إن القس «هنري نارمن» الذي كان خطيبًا مصقعًا عند النصارى قد اعتنق الإسلام، وذهبَ إلى أمريكا مسلمًا، فهو الآن يتلو القرآن ويدعو إليه، ونبذ الإنجيل وراءَه ظهريًا، فالقرآن – كذلك – انتشر في العالم كله. فما مزية الإنجيل في انتشاره؟».

وذكر باحثًا إنجليزيًا آخر، قد نسيتُ اسمَه، ولعله «توتي بيلي» فقال ناقلاً عنه: «إنَّ الإنجيل قد اندرس من العالم في حادثٍ من الحوادث. فإن كان أمر الإنجيل كذلك فكيف نقول: إن هذه التراجم من الأصل. وأما القرآن فهو مصون بأصله إلى اليوم. ثم إنَّ المسلمين انتشروا في العالم بقدر لم ينتشر أتباع أي دين آخر، على هذا فإن قلنا: إنَّ القرآن انتشر في جميع أقطار الأرض، وهو لدى جميع المسلمين في كل مكانٍ، ومن يفهمه ويفسره يوجد في كل مكان، وذلك انتشار واسع، وأما كثرة التراجم فهي لاتجدي نفعًا».

ردُّ القس «نولس»

ردَّ القس «نولس» قائلاً: «إن أَسْلَمَ القس «هنري نارمَن» فلا بأس؛ فإنَّ إنجلترا كلها مسيحية، والذي ادَّعى فِقْدان الإنجيل فهو رجلٌ مارِق من الدين، لانَثِقُ بقوله.

المناقشة

قال الشيخ محمد قاسم النانوتوي للقس: «هل تُصَدِّق هذا الحادث؟»

قال القس: لا، فقال الشيخ: «إلا أنَّ أولي الألباب يعرفون أنَّ كونَ الحادث المتقدِّم ذكره مزوَّرًا إن لم يَقُمْ دليلاً مفحمًا على القس في بطلان المسيحية – لذلك قال الشيخ: إن كان هذا الحادث مزوَّرًا لديك فلا يُوَجَّهُ الاعتراض عليك في فقدان الإنجيل – إلا أنَّ أولي الأحلام والنهىٰ لايشكّون في أنَّ دعوى حقانية الإنجيل والمسيحية دعوى بلا دليل. فإن ادّعى القس أنَّ الإنجيل كتاب سماوي واستدل على حقانيته بما قال في خطبته، فلا ريب أنَّ هذا الحادث يجعل السامع يشكّ في حقانية الإنجيل. وأيُّ دليل لدى القس على أنَّه هو صادق والمؤرِّخ المتقدِّم ذكره كاذب؟ بل إنصاف ودراسة مؤرخي أوربا لاسيما الإنجليز منهم أكبر دليل على صدق هذا الحادث. وما يدَّعيه المسلمون من التحريف في الكتب المقدسة: التوراة والزبور والإنجيل، والذي يدل عليه ما جاء فيها يجعله هذا الحادث مؤكَّدًا ومؤيدًا.

اعتراض الشيخ مير أحمد حسن

ثم قام الشيخ مير أحمد حسن وقال: «إن كان لابدَّ للدين السماوي والكتاب السماوي من الانتشار والشيوع في أنحاء العالم كان قول سيدنا عيسى عليه السلام خاطئًا حيث قال: «بُعِثْتُ

لإرشاد قُطْعَانِ بني إسرائيل الضالَّة».

إجابة سخيفة من القس

لجأ القس إلى الإجابة العقلية ردًّا على ما قال الشيخ مير أحمد حسن، فأجابَ إجابةً كانت غايةً في السخافة؛ حيث قال: «من الواقع أنَّ عيسى عليه السلام بُعِثَ رسولاً إلى بني إسرائيل خاصةً، إلا أنه حيثما يوجد الخاص يوجد العام» واستدلَّ مشيرًا إلى ما في يده من العكَّازة فقال: «هذا خشبٌ وعكازة في وقتٍ معًا فالخشب عام والعكازة خاص» وأيَّده أحد القساوسة الجالسين قائلاً: «قد جاء هذا البحث في شرح التهذيب أيضًا» فقال له الشيخ محمد قاسم ستبدو معرفتك بالمنطق في لحظات.

كلمة الشيخ أحمد علي

لقد عرف أولو الألباب من دعوى القس وما استدَل به أنّه لم يُحِرْ جوابًا، ولم تكن الحاجة ماسةً إلى الرد على دليله، إلا أن الشيخ أحمد علي النكينوي أحد المحامين في محكمة «شاه جهان فور» قام وقال: «إن كان العام والخاص يتلازمان تلازمًا وجوديًا فلا بأس؛ فلكلٍ من العام والخاص أحكام منفردة، فالإنسان عام فله أحكام منفردة، وزيد خاص فله أحكام منفردة أخرى. أي إن أفراد الإنسان مختلفون اختلافًا، فهذا مؤمن، وذلك كافر، وآخر مسلم، أو نصراني، أو حسن الخلق، أو سيئه، أو رجل، أو امرأة، أو صالح، أو طالح، أو شجاع، أو جبان، أو جواد، أو بخيل؛ فكون رجلٍ واحدٍ مؤمنًا أو كافرًا أو مسلمًا

أو نصرانيًا لايستلزم أن يكون جميع أفراد الإنسان مؤمنين أوكفارًا أو مسلمين أو نصارى وهلُمَّ جرًا. فلو كان أحكام العام والخاص واحدة لكان جميع أفراد الإنسان متساوين في كل شيء.

رَدُّ القس على اعتراض الشيخ السيّد أبو المنصور

ثم قام الشيخ السيد أبو المنصور الذي كان من كبار محاوري أهل الكتاب والذي لم يكن له نظير في الردِّ عليهم، وقال: «إن كانت كثرة الترجمات بهذا القدر دليلاً على كون الإنجيل كتابًا سماويًا نقول: إنَّ الإنجيل لم يكن كتابًا سماويًا قبل القرن الثامن عشر لأنَّ ترجمات الإنجيل قد كثرت في هذا القرن، وإن كان الإنجيل كتابًا سماويًا من بداية أمره، فذلك يُتَصَوَّر لكل كتاب في القرن الثامن عشر.

لم يزد القس على أن قال: «نعم إنَّ الترجمات قد كثرت في القرن الثامن عشر. إلا أن عددًا لابأس به من الترجمات كان قبل القرن الثامن عشر، فلم يكن هذا ردًّا على الاعتراض، وإنما كان اعترافًا بصحته.

حوار بين الشيخ ميرزا موَحِّد والقس

ثم قام الشيخ ميرزا موحِّد الجالندهري الذي كان رجلاً شريفًا، وكان من المبرِّزين في الردِّ على النصارى، وسأل القس ما المراد بانتشار الإنجيل وشيوعه؟ أهو انتشار جسماني أم انتشار روحي؟ ولعلَّ غرضه من وراء إثارة هذا السؤال أنَّ القساوسة لايسلِّمون بالأحكام الجسمانية في دين عيسى عليه السلام، وأما الانتشار الروحي فلا أثر له

على النصارى كذلك؛ لأنهم لو اتبعوا عيسى عليه السلام اتباعًا روحيًا لقدروا على مباشرة ما قام به عيسى عليه السلام. أذكر أنَّ القس أقرَّ بالانتشار الروحي، ولا أذكر ما رَدَّ به عليه الشيخ ميرزا موَحِّد.

محاضرة الشيخ محمد قاسم النانوتوي

ثم جاء دور علماء المسلمين، فوسَّدوا مسؤولية إلقاء المحاضرة إلى الشيخ محمد قاسم. لم يُرِدِ الشيخ – لأسباب – أن يلقي محاضرته، إلا أنهم لما أصرُّوا عليه قامَ وحمد الله وأثنىٰ عليه، وأبدى تواضعه وعجزه، ثم تشهَّد شأنَ الخطباء المسلمين وألقى محاضرته.

حقانيةُ دينٍ تتوقف على حقانية معتقداته لا على أحكامه

وخلاصة ما قال في محاضرته أنَّ حقانيةَ دين وبطلانَه تتوقف على حقانية معتقداته وبطلانها، ولا دخلَ للأحكام في حقانيته وبطلانه؛ لأنَّ الحاكم – نظرًا إلى حكومته – حُرٌّ في إصدار كل نوع من الأحكام، ولولم يكن حرًا في ذلك أي إن لم يستطع أن يصدر كل نوع من الأحكام بالنسبة إلى رعيته ومحكوميه لكان محكومًا لا حاكمًا. وأما تخصيص الأحكام السيئة فنظرًا إلى العدل والنصفة والرأفة والرحمة والتؤدة والحكومة، لا إلى الحكومة.

أساس المعبودية

إنَّ أساس المعبودية على الحكومة فحسب، والعبادة عبارة عن الطاعة والخضوع القلبي، إذا اعتقد المطيع والخاضع صاحبَه –

الذي يطيعه ويخضع له – حُرَّ التصرف في أوسع معناه واعتقد غيره مكتوف اليد عاجزًا. وهذه هي الحكومة؛ فأساس معبودية المعبود الحقيقي على الحكومة العالية التي يتمتع بها والتي يُوْصَفُ بها أحكم الحاكمين، إذًا فتحقيق حكمٍ من أحكامه أهو صحيح أم خاطِئ ينافي إخلاص العبادة، وإن لم يكن حكم من أحكامه يضادُّ الرأفة والحكمة والصفات التي أشرنا إليها من قبل.

إن كان لابدَّ من تحقيق الحكم فالتحقيق بأنَّ هذا الحكم هو حكم الله تعالىٰ أم لا؟ أي التحقيق بأن الذي ادَّعى النبوة والرسالة والذي وصل إلينا عن طريقه هذا الحكم أهو كريم الأخلاق وجميل الصفات وذو معجزاتٍ خارقة أم لا؟ ثم إننا إن لم نزره عندما بلَّغ رسالة الله وأحكامه فلابدَّ من تحقيق ذلك الطريق الذي وصل إلينا عنه أحكامه أهو طريق موثوق به أم لا؟.

على أنَّ الأحكام كثيرة، وتحقيق كل حكم يتطلب أمدًا طويلاً، وذلك لايمكن في غضون خمس عشرة دقيقة، فلو حصرنا حقانية دينٍ على المعتقدات لكان الأمر أسهل؛ لأنَّ العقيدة نوع من الخبر فإن كانت صحيحةً فذلك يعني أنَّ الخبر مطابق للواقع، وإن كانت باطلة فذلك يعني أنَّ الخبر كاذب، فإن سلَّمنا بحكومة الله وكونه أحكم الحاكمين وما تستلزمه حكومته لزم أن نُسَلِّمَ بأنه معبود، وإلا لا يُسَلَّمُ بكونه معبودًا، فيطيعه النَّاس. ثم إنَّ المعتقدات الضرورية قليلة معدودة على الأصابع لايتطلب تحقيقها صعوبة ولا مدة طويلة.

فإذا تأملنا في الأديان من الناحية العَقَدِيّة وجدنا الإسلام أفضلها وأحسنها؛ فأول عقيدة يعتقدها المسلمون ويبتني عليها أساس الإسلام هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

التوحيد في كل دين من الأديان

فالتوحيد التي تُعَبِّر عنه الفقرة الأولىٰ من الكلمة لايجحد به أتباع دينٍ من الأديان، فمعظم الجاحدين بالتوحيد هم المشركون، وهم ثلاث فرق: الفرقة الأولى عرب الجاهلية، والفرقة الثانية: الهندوس في بلاد الهند، والفرقة الثالثة: النصارىٰ. أما عرب الجاهلية فهم على إشراكهم بالله وعبادتهم للآلهة كانوا يرون الله خالق الأرض والسموات، فقد قال القرآن عن شأنهم: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللهُ»[1].

أما الهندوس فهم على كونهم عُبَّادَ الرسل والآلهة يرون الخالق والمحي واحدًا. وأما النصارى فهم – وإن كانوا أشدَّ إشراكاً بالله لأن المشركين يشركون بالله في الصفات وأما النصارى فهم يشركون به في الذات – يقولون بالتوحيد بأنّ الآلهة في الحقيقة ثلاثة عندهم فهم واحد في الحقيقة.

خلاصة القول أنهم اعتقدوا أمرًا محالاً وهو الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية. ومع ذلك كله قالوا بالتوحيد. فعُلِمَ أنَّ التوحيد

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

لامحيد عنه لدين من الأديان. فلما كان أساس الأسس في كل دين من الأديان هو التوحيد فما خالفَ التوحيد كان بدوره باطلاً، وهو الإشراك بالله وعبادة الآلهة.

التوحيد في ضوء العقل

على أنَّ العقل السليم يَدُلُّ على أنَّ المعبود الحقيقي واحد؛ ذلك أنَّ العالم بأسره يشمله الوجود، فكلمة «الموجود» تطلق على كل شيء، ويُسَمَّى وجود كل شيء وجودًا لاغير.

ثم إنَّ معظم موجودات العالم حادثة لاقديمة، لم تكن موجودةً في زمن من الأزمان ثم وُجِدَتْ، ثم تنعدم؛ فعُلِمَ أنَّ وجود الأشياء كحرارة الماء والنور المنتشر على الأرض، أي إنَّ الماء كان باردًا والأرض كانت مظلمة، ثم صار الماء حارًا والأرض متنوِّرة، ثم يصير الماء باردًا والأرض مظلمة. فكما أنَّ كل واحد من الناس يعرف من مجيئ الحرارة والنور وذهابهما أنهما ليس للماء والأرض من صنع ذاتهما، وإنما هما مستعاران، فتوصلنا من ذلك إلى النار والشمس. فكذلك يُعْرَفُ من مجيئ وجود الأشياء الحادثة وذهابه أن وجودها ليس من صنع ذاتها، وإنما هو مستعار من الذي هو له من صنع ذاته لامستعار له.

أما الموجودات التي تدوم على حالٍ واحدةٍ والتي لم يُشَاهِد أحد من الناس عدمها كالأرض، والسماء، والشمس، والقمر، والكواكب – فيما يبدو أنه ليس لها معطٍ للوجود – فإذا أمعنا النظر

وجدنا أنها حادثة كذلك، وذلك أنَّ هذه الأشياء تشترك في الوجـود وتتمايز بالحقائق، ولولا ذلك لما أمكن التمييز؛ فلزِم الاعـتراف بـأن وجود هذه الأشياء شيء وحقائقها شيء آخر، فكما أنّ اجتماع شيئين ممكن فكذلك افتراقهما ممكن، فلما أمكن الافـتراق لـزِمَ القـول بـأن وجودها مستعار كذلك.

ما هو اللّه؟

ولما كان الشيءُ المُعَارُ يجب أن يكون مُعِيْرُه من يملكـه بالـذات وجَبَ أن يكون للوجود المُعَارِ مُعِيْرٌ، أي وجَبَ أن يكـون للوجـود موصوف بالوجود بالـذات، وذلـك هـو الله الـصمد الغنـي الـذي يحتاج إليه الناس وهو لايحتاج إليهم.

وحدانية اللّه تعالى

ثم إنَّ هذا النوع من الموجود واحد لاغير، وذلك أنه لما اعتبرنا الوجود وحـدةً – كـما تقـدَّم – كـان الموجـود الأصـلي – الـذي لـه الوجود من صنع ذاته – واحدًا.

على أنه لـيس شيء أعـمَّ مـن الوجـود، فلـزِمَ الاعـتراف بـأنَّ الوجود شيء لا متناهٍ، فإن كان متناهيًا وجـب القـول بـشيء فوقـه، وكان متناهيًا بالنسبة إليه وكان هو أعمَّ منه.

ولما كان الوجود متناهيًا فذلك يعني أنَّ الوجود يحـيط بجميـع مواضعه فإن كان هناك وجود آخر فأين موضعه؟ وليس من الممكن ان يتحدا وينضما و يصيرا شديدين شدةَ النور المشَعّ من مـصباحين؛

لأنه ليس شيء أكثر اتصافًا بالصفة من الموصوف الأصلي، وليـست صفة أشدّ وأزيد من الصفة الأصلية لاسيما الوجـود الأصـلي؛ لأنـه ليس فوقه مرتبة؛ ولـذلك كـان لا متناهيًـا، وإلا كـان متناهيًـا، أمـا صيرورته أزيد وأشد فنهاية كذلك.

إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم

وجملة القول أنه وجب الاعتراف بوحدانية الله تعـالى بالـدليل العقلي، ولما دلَّ الدليل العقلي والنقلي على أنَّ الله واحد لاشريك لـه، كانَ عبادة غيره ظلمًا عظيمًا؛ لأنه لايستحق العبادة إلا الله.

وبيان هذا الإجمال أنه لما كان الوجود يملكه الله تعالى بالـذات كان إعطاء الوجـود وسـلبه منـه، فكـما أنَّ الـشمس تعطـي نورهـا الأرض وتسلبه إياها، فكـذلك الله تعـالى يعطـي الوجـود ويـسلبه، فوجود كل شيء: ذاته وصفاته كان منه، وعدمه: سلب الوجود كان منه كذلك.

عاملان أساسيان للطاعة

ثم إنَّ الطاعة لها عـاملان أحـدهما: الأمـل في النفـع وثـانيهما: الخوف من الضرر. فالموظف يخدم سيده أمـلاً في راتبـه، والرعيـة تطيع حاكمها أو المظلوم يخضع لظالمه خوفًا من ضرره. ولما كـان الله تعالى يملك العطاء والسلب والنفع والضرر فمن يُطَاعُ غيره ولماذا؟ ومن يملك النفع والضرر غيره؟ وإنما يملك النفع والضرر مـن لـه الوجود من صنع ذاته. وأما طاعة ممثليـه ومبلغـي أحكامـه فطاعتـه

هو، وهم رسله وإنما الأحكام أحكام الله.

لن يكون إنسان إلهاً

إذًا فعبادة غير الله – كما يعبد الهندوس والنصارىٰ – تعارض العقل والنقل. ولا يستحق العبادة إلا الله، فاعتقاد سيدنا عيسى عليه السلام والسيد «راما» والسيد «كرشنا»[1] آلهة مما يعارض العقل كذلك، من حيث أنهم محتاجون إلى الطعام والشراب ومكرهون بالدواعي الطبيعية من البول والبراز والمرض والصحة. وإنما الإلٰه هو الغني الصمد. والذي يحتاج ويُكْرَه بمثل هذه الأشياء من البول والبراز لن يكون إلٰهاً.

اعتراض القس «نولس»

على هذا فقامَ القس «نولس» أثناء محاضرة الشيخ وقال له: «لاتقل كلمة البول والبراز» فقال له الشيخ: لعلك شعرت بالإهانة إلى سيدنا عيسى عليه السلام» لوكانت الكلمة توحي إلى الإهانة لما قلت؛ لأنَّ إهانة سيدنا عيسى عليه السلام عندنا كإهانة سيدنا محمد ﷺ توجب الكفر والردة.

محاضرة الشيخ الباقية

جملة القول أنَّ الشيخ قال: من كان محتاجًا ومكرهًا هذا

(١) يعتقد الهندوس أنّ الإله (فشنو) قد نزل إلى الأرض متجسدا في صورة إنسان خمس مرات، ومن تلك المرات الخمس مرة تحت اسم «راما» وأخرى تحت اسم «كرشنا» (الإنجيل والعقيدة ١٠٧/١).

الإكراهَ فكيف ألوهيته؟ فقول النصارى بأنَّ الله ثلاثة في واحد باطل بيّنُ البطلان، لايستسيغه عقل عاقلٍ، حتى النصارى هم الآخرون يذهبون من الوجهة العقلية مذهبَ الآخرين، فيقولون: إنَّ التثليث سر من أسرار الله لاتدركه عقولنا الناقصة.

الحاجة إلى الرسالة والنبوة

فلما علمنا أنه لايستحق العبادة إلا الله فاعلموا أنَّ العبادة عبارة عن الطاعة، والطاعة هي العمل بما يرضي غيره، وأما رضا الغير وعدم رضاه فلا يمكن معرفتهما إلا أن يُخْبِرَبهما، فإن لم يُخْبِرْبهما فليس إلى معرفتهما من سبيل. ونحن أولو أجسامٍ وذواتٍ كثيفة لايمكن لأحد أن يعرف ما في ضمائرنا وما نرضاه وما لا نرضاه مالم نخبره، مهما وضعنا الصدر على الصدر أو كشفنا عن القلب، فكيف يمكن لأحد أن يعرف ما يرضاه الله اللطيف الخبير وما لا يرضاه.

فطاعة الله تتطلب أن يخبر هو بأحكامه، والعقل الضعيف لايدركها؛ فإن عرف واحد أو اثنان من الآلاف المؤلفة من الناس حُسْنَ أو قُبْحَ أمرٍ أو أمرين من أوامره فذلك لايُغْني شيئًا؛ لأنه ليس يُسْتَبْعَد من الله وهو الحاكم المطلق أن يتقيَّد في إصدار أوامره بالحسن والقبح، فإن تقيَّد بشيء لأجل الاضطرار كان محكومًا لاحاكمًا، والمحكوم لن يكون إلٰهًا. فإن لم يكن مضطرًا ومكرهًا كان حرَّ التصرف في تغيير أحكامه وأوامره، فلا يكون متقيدًا بالحسن والقبح.

فلا بدَّ من انتظار أمر مـن الله في بـاب الأحكـام، إلا أنَّ ملـوك الدنيا لايبلِّغون بأنفسهم أحكامهم كلَّ واحد من النّاس، فالله تعـالى الذي هو أحكم الحاكمين والذي تتضاءل دون حكومته حكومـات ملوك الدنيا كيف يبلِّغ أحكامه كلَّ من هبَّ ودبَّ من الناس؟ فكـما أنَّ ملوك الـدنيا يـستخدمون رجـالهم ومقـرَّبيهم لتبليـغ أحكـامهم فكذلك الله تعالى يُبلِّغ أحكامه عن طريق رسله ومقربيه.

التقرب إلى اللّه

وكـما أنَّ المقـربين إلى ملـوك الـدنيا هـم الـذين يُرضُـوْنهم وينصحونهم ولايعصون لهم أمرًا، وإلا لماكانوا مقربين، وإنـما كـانوا مغـضوبًا علـيهم، كـذلك المقربـون إلى الله يطيعونـه كـلَّ الطاعـة ولايعصون له أمرًا.

الأنبياء لايُعْزَلون عن مناصبهم

إنما الفرق بين الله وبين ملوك الدنيا أنهم قد يخطئـون في معرفـة الناصح من المنافق والمطيع مـن العـاصي؛ فيولـون المنـصبَ أحيانًـا ويعزلون عنه أحيانًا أخرىٰ، ويرحمون مرة ويغـضبون أخـرىٰ. والله تعالى وهو العليم الخبير لايخطئ في المعرفة وإلا لزِم القول – إيضاحًا للحقيقة – بأنَّ علمه كنور القمر والكواكب لايُرى بـه – لـضآلته – الأشياء والفروق الدقيقة، ومن كان وجوده كاملاً ليـست لـه صـفةٌ ناقصةٌ، وإلا كان وجوده ناقصًا، ولما كان علمه كاملا وكان لايمكن الخطأ في معرفة المطيع من العاصي، فمـن جعلهـم مـن مقربيـه كـان

طرده إياهم من الجناب وعزلهم من المناصب مضادًا للعقل.

عصمة الأنبياء

وخلاصة القول أن الأنبياء لـيس فـيهم صـفة لايرضـاها الله، فكانوا مرضيّ الأخـلاق جمـيلي الـصفات، فلـزِمَ القـول بعـصمتهم لأنهم لما أعوزتهم الصفات السيئة وتحلَّوا بالقوى والصفات الجميلة فلا تصدر عنهم الأعمال السيئة؛ لأنّ صدور كل عمـل يقتـضي قـوةً وصـفةً، فالرؤيـة تقتـضي القـوة البـاصرة، والـسمع يقتـضي القـوة الـسامعة، فكـذلك الأعـمال الـصالحة تتطلـب الـصفة الجميلـة، والأعـمال الـسيئة تتطلـب الـصفة الـسيئة، فلـما كـانوا مبرَّئـين مـن الصفات السيئة كانوا معصومين عن الأعمال السيئة.

شفاعة الأنبياء

فلما كانوا طوع أمر الله ومحكومين له فلايكـون لهـم امتيـازات وسـلطات بـأن يغفـروا أحـدًا ويعـذبوا آخـر؛ فلـو تمتعـوا بهـذه الامتيازات كانوا حاكمين لامحكـومين، نعـم يمكـن لهـم أن يَـدْعُوا لأحد أو يَدْعُوا عليه أو يقولوا خيرًا في شـأن أحـد أو يقولـوا كلمـةً سيئةً في شأن آخر، إلا أنهم لما كانوا مقدسـين ومعـصومين، يبـذلون النصح لناصحيهم ولا يضمرون لهـم العـدواة والنفـاق، ويقولـون خيرًا لا كلمةً سيئةً في شأنهم، وهذا ما يُسَمَّى بالشفاعة.

عقيدة التكفير عند النصارىٰ

وجملة القول أنَّ شفاعة الرسل عليهم السلام أمر ممكـن، وأمـا

تكفير سيدنا عيسى عليه السلام عن أمته فلايمكن، أي ما يعتقده النصارى من أن عيسى عليه السلام لُعِنَ عن أمته وعُذِّبَ في جهنم ثلاثة أيام عوضًا عنهم يُعارضُ العقل كلَّ المعارضة؛ لأنَّ لكل شيء سببًا: ففي المحبوب سبب للمحبة، وفي العدو سبب للعداوة، وفي المرحوم سبب للرحمة، وفي الملعون سبب للعنة. وليس من الممكن أن يكون رجل حسن الوجه ويُحَبَّ غيره، ويطيع رجل ويُرْحَم آخر، وأن يكون رجل قبيحَ المنظر ويُكْرَه من كان قسيًا وسيًا، ويعصي رجل ويُغْضَب على من كان بارًا مطيعًا؛ فنحن المسلمين نعتقد أنّه لاتزر وازرة وزر أخرى.

التثليث في التوحيد يعارض العقل

إنَّ عقيدة تعدُّد الآلهة وعقيدة التكفير معارضتانِ العقلَ كلَّ المعارضة وباطلتان كلَّ البطلان. ثم إنَّ عقيدة تعدُّد الآلهة مع وحدة الإلٰه مما لايقبله أحد من الناس، صغيرًا كانَ أو كبيرًا، شابًا كان أو شيخًا، كاملَ العقل كان أو ناقصه، حتى إنَّ النصارىٰ أنفسهم يرون – بموجب العقل – اجتماع التعدد والوحدة الحقيقيَّين من جملة المستحيلات؛ فكل ذي عقل يراه باطلاً. فما يدركه العقل دونما دليلٍ أي لايحتاج في إدراكه إلى دليلٍ، لايُثْبِتُه حتى ألف دليل؛ لأنَّ ما ثبت بدون دليل فهو كالمشَاهَد، وما ثبتَ بالدليل فهو كالمسموع، وشتّان ما بين المشاهد والمسموع.

ومثله كمثل عالم رياضيٍ بارع يقول عند غروب الشمس وهو

ينظر إلى ساعته: «قد غربت الشمس» ورجل غير مثقف واقف على مكانٍ مرتفع ينظر بأم عينيه أنَّ الشمس لم تغرب حتى الآن. فكما أنَّ هذا الرجل – بالرغم من قلّة ثقافته وعدم معرفته بالأوقات بالساعات واعترافه بفضل العالم الرياضي البارع – لايصدِّق العالم الرياضي في قوله المبرهن بالدليل لما شاهده بأم عينيه، مهما ادّعى حتى ألف عالم رياضي غروبَ الشمس مستدلين بالساعات. فكذلك العقل يرى – لما حصل له العلم دونما دليل والذي هو بمثابة المشاهدة عن هذه المستحيلات – هذه المستحيلات المبرهنة بالدلائل – مهما قدَّمَها العقلاء – خاطئةً.

العقل يقضي

فكما أنَّ ذلك الرجل غير المثقف يرى ما تُشِيْرُ إليه الساعة خاطئًا ويقول عنها: «إنها متعطلة وأما مشاهدتي فليست خاطئةً» وإن لم يعلم ما فيها من التعطل، فكذلك عقول عامة الناس وخاصتهم لن تُسَلِّمَ وتُصدِّق – لما تدركه من استحالة اجتماع التوحيد والتثليث دونما دليل – دعوى التثليث في الإنجيل – المُسْتَخْرَجة من بعض نصوصِه التي لاتحتمل إضافةً ولازيادةً ولو فرضًا بلْهَ الإذعان بالإضافة والزيادة – وإنما ترى الإنجيل محرَّفًا، وتقول: إنه قد دَخَلَه التحريف والخطأ. وإن لم تعلم ما فيه من التحريف.

لم يتمَّ محاضرة الشيخ محمد قاسم لقلَّة الوقت

كان الشيخ محمد قاسم يلقي محاضرتَه، وإذا القس أخبره بأنَّ

وقته المحدَّد – وهو خمس عشرة دقيقةً – قد انتهى[1]، فأوقف الشيخ محاضرته، فأَسِف المسلمون على انتقاص محاضرته.

وقد كان الشيخ يوضِّح الفرق بين المستحيلات والمتشابهات؛ لأنَّ المتشابهات كذات الله تعالى وصفاته وأرواح بني آدم يحتار العقل في إدراكها، وأما المستحيلات فلا يحتار العقل في إدراكها، وإنما يدرك عدمها واستحالتها دونما صعوبةٍ، والفرق بين إدراك العدم وعدم الإدراك كالفرق بين الأرض والسماء.

اعتراض سخيف

انتهت محاضرة الشيخ فعاد إلى مجلسه، ونهض القس وقال: «إنَّ الشيخ لم يُبيِّن من فضائل دينه شيئًا، وإنَّما وجَّهَ اعتراضًا إلى ديني». إنَّ القس لم يستطع أن يعترض على ما اشتملت محاضرته من الحقائق، وكان اعتراضه هذا غايةً في السخافة. أراد الشيخ أن ينهض ويردَّ عليه، إلا أنه لم يأتِ دوره حتى قام الشيخ أحمد علي النكينوي أحد المحامين في محكمة «شاه جهان فور» وقال: «هذه هي فضائل ديني. وأما الأديان الأخرى ففيها معايب سردها الشيخ محمد قاسم في محاضرته، وأما الإسلام فليس فيه منها شيء».

يُلْقِي القس «مولا دادخان» محاضرةً مثيرةً للغضب

ثم قامَ بعض القساوسة الهنود الذين أصَمُّو آذان الحضور في الحفل، وكان منهم القس «مولا دادخان» الذي ألقى محاضرةً فارغةً عن المعنى تَشِفُّ عن الإساءة إلى سيدنا محمد ﷺ، وكانت الإساءة

حيلةً احتالها. ومن دأب القساوسة أنّهم يسيؤون الأدب إلى نبيّ الإسلام في حوارهم تخلُّصًا من المسلمين. ولما كان المسلمون يتورعون عن مثل هذه الأمور ولايبادلون الإساءة بالإساءة؛ لأن سيدنا عيسى عليه السلام وحواريه والأنبياء السابقين محترمون ومعظمون لديهم كذلك، فيضطرُّونَ إلى الردِّ عليهم باليد دون اللسان مما يتيح لهم الفرصة أن يُشَهِّروا بأنَّ المسلمين إذا لم يتمكنوا من الردِّ أو لم يتوصلوا إلى الإجابة بدؤوا يحاريون أو يلوذون بالفرار، فينتصر القساوسة.

على كلٍ فهم ينبذون الإنصاف والخوف من الله وراء ظهورهم ويسيؤون الأدب؛ فقد حذا القس «مولا داد خان» حذوهم، وأسوق خلاصة ما قالَه في محاضرته، ولايطاوع القلم واللسان لشناعة ما قاله فيها، فقال: «ادّعى نبيُّ المسلمين النبوّة كما ادّعى سيِّد الحُوْلِ. وقال عيسى عليه السلام: الذين يأتون بعدي يكونون سُرَّاقًا وقطاع الطريق» وذلك يعني أنه لن يأتي بعده نبي».

يؤاخذ الشيخ السيد أبو المنصور القس على إساءته

ردَّ الشيخ السيد أبوالمنصور على القس قائلاً: «أسفًا عليك أيها القس! لقد أمضيت طول عمرك في دراسة الإنجيل، ولاعِلْمَ لك بما فيه. ليس فيه «الذين يأتون بعدي يكونون سُرّاقًا وقطاع الطريق» وإنما جاء فيه «الذين أتوا قبلي كانوا سُرَّاقًا وقطاعَ الطريق» فأصرَّ القس على ما قاله. فقال الشيخ السيد أبوالمنصور: هَلُمَّ الإنجيل.

فقاطع القس «نولس» الحديث وقال: لقد أخطأ صاحبنا، والشيخ على الصواب. إلا أنَّ اللفظ العبري المترجَم إلى «بعد» مشترك بين معنيين: «قبل» و «بعد» كالمضارع. فرَدَّ السيد أبو المنصور قائلاً: إن كان اللفظ العبري مشتركاً بين معنيين فلا بأس. فترجمة اللفظ العبري المشترك إلى «قبل» تدل على أنَّ المراد به «قبل» لا «بعد».

سُقِطَ القس «مولا داد خان» في يده، وأطرقَ رأسه خجَلاً، وظلَّ صامتًا إلى نهاية الحوار. كما أنحى المسلمون والهندوس عليه بالملام؛ فقد قام «أجوديا برساد» الهندوسي وأطالَ الكلام في الموضوع قائلاً: «لاينبغي الإساءة إلى الشخصيات المقدَّسة في أيِّ دين» فتكرر اعتذار القس أنه لم يتعمّد صاحبنا الإساءة إلى إيِّ شخصٍ، وكان لايضرّ المسلمين أن يُسَلِّموا ترجمة اللفظ إلى «بعد» وإنّما يضرُّنا أنفسنا ذلك؛ لأنه حينئذ يصير الحواريون سُرّاقًا وقطّاع الطريق أولاً ثم غيرهم.

على كلٍ فترجمة اللفظ إلى «قبل» أو «بعد» تُشَكِّل صعوبةً ومشكلةً للقساوسة؛ لأنه يؤدِّي إلى أنكار نبوَّة الأنبياء السابقين في صورةٍ و إنكار رسالة الحواريين في صورةٍ أخرىٰ.

فلما آخذ الشيخ السيد أبو المنصور القس المتقدِّم ذكره، وصدَّقه القس «نولس» فيما آخذه، وقد كان القس يهدف إلى إبطال نبوّة سيدنا محمد ﷺ بالإنجيل، جرى النِّقاش عن إثبات نبوّة سيدنا محمد ﷺ بالإنجيل؛ فذكر الشيخ السيد أبو المنصور نبوءآتٍ عن

نبوّة سيدنا محمد ﷺ وردت في التوراة، ومنها أنَّ الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام: «أبعث نبيًا مثلك من إخوانك، وألقي كلامي في فيه». ثم أضاف الشيخ قائلاً: «أنا أستطيع أن أُثْبِتَ المماثلة بين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام في أربعين خصلةً».

القساوسة يُلْقُونَ كلماتٍ فارغةً

لم يَجْرِ في هذا اليوم من الحوار بين المسلمين والنصارىٰ إلا ما قدَّمته آنفًا. ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن من بين النصارى من يكون أهلاً للحوار إلا القس «نولس». فلو قلت: إن غيره من القساوسة كانوا يلقون كلماتٍ فارغةً لكنت مصيبًا.

المسلمون ينتصرون

ابتدأ الحوار في التاسعة ضحىً وانتهىٰ في الثانية ظهرًا. ثم صلى علماء المسلمين الظهر وتغدَّوا، وتبادلوا التهانئ فيمابينهم، وشكروا الله على ذلك. وقد طار في المدينة أنه انتصر المسلمون؛ فتدَفَّقَ الناس كالسيل في اليوم التالي.

وبالجملة قد أصبح ذلك حديث القوم، فقال الشيخ محمد قاسم: تأكَّدت – ولله الحمد – أنه ليس في القساوسة من نخشاه إلا أنَّ عنادهم وقلَّة إنصافهم يُحْزِنُنا.

علماء المسلمين يلقون خطبًا في المعرض

ثم قال الشيخ محمد قاسم لعلماء المسلمين بأن يتفرقوا في المعرض

ويلقوا خطبًا على عامة الناس؛ فتفرَّق علماء المسلمين وألقوا خطبًا في حقانية الإسلام وإبطال المسيحية، فما إن أمسى المساء حتى تبدَّل الوضع غير الوضع، ولم يتشجَّع أحد من القساوسة للردِّ عليهم. وغابوا كأنهم اختفوا في مغارة.

وقد كان الشيخ محمد قاسم أعدَّ محاضرة[1] على عجَلٍ في حقانية الإسلام و كان أخذها معه، كما ألقى الشيخ خطبةً في إبطال عقيدة التكفير عند النصارىٰ، فقال الشيخ: سجِّلوا خطبتي هذه، فإن مسَّت الحاجة غدًا اقرؤا كتابتي وخطبتي في الحوار. ثم تشاوروا وصلُّوا العشاء وتعشَّوا ثم ناموا هادئين مطمئنين. ثم استيقظوا صباحًا مبكرا وصلُّوا الفجر. وكانوا كما قال الشاعر الأردي:

«إنَّ الناس ينصرفون إلى أعمالهم في الصباح الباكر، وأما المحبّون فهم يُؤَمِّون وجوههم شطر منزل الحبيب».

ثم أمر الشيخ علماء المسلمين بانصرافهم إلى مهمتهم، فتفرَّقوا في المعرض وألقوا خطبًا في حقانية الإسلام، فجزاهم الله عن جميع المسلمين خير الجزاء، فيما يبدو أنَّ النفع بإلقاء الخطب كان أمرا موهومًا، إلا أنَّ الحال قد تبدَّلت في هذا اليوم منذ ذلك الوقت.

استمرّ الإلقاء إلى التاسعة ضحىً، وكان القساوسة يتجولون في المعرض، وكان عامة الناس يُعيِّرونهم قائلين: «مالكم لاتنطقون؟

---

(١) هي رسالته المعروفة بحجة الإسلام، نقلها المترجم إلى العربية، وطبعتها أكاديمية شيخ الهند بالجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

وقد كنتم تهدِّدوننا من قبل». وكان الهندوس فرحين مسرورين كذلك.

فعَّاليات الاجتماع الثاني يومَ الاثنين ٨/ مايو ١٨٧٦م

المستمعون يزدحمون

فما إن كانت الساعة التاسعة حتى ذهب المحاورون من المسلمين والمستمعون إلى الخيام، وإذا الكراسي الموضوعة فيها حافلة بالجالسين ولم يبق إلا عدد من الكراسي خالية، وهم قد سبقوا إليها شوقًا إلى استماع الحوار، وبعضهم كانوا يندفعون إلى الاجتماع اندفاعًا، وبعضهم كانوا واقفين على الأقدام حول الخيام، فحالَ رجال البوليس دون اندفاعهم. فنظراً إلى ازدحام الناس وكثرتهم أمر المشرفون على الاجتماع بالكراسي فجُلِبَتْ وصُفَّتْ متجاورةً، مع هذا فكان كثير من الناس بين قِيَامٍ وجُلوس.

يتلَهف الناس شوقًا إلى استماع الحوار

نصبت الخيام على الأعمدة الدقيقة، فتوسَّعت ظلالها التي استظل بها الواقفون، وكانت الكثرة الكاثرة من الناس واقفين خارجها؛ حيث يصل الصوت لايبالون بالشمس وحرارتها. وكان فصل الصيف، وكان الحر شديدًا، وكان موقع الاجتماع في الصحراء بعيدًا عن المدينة، لاتُظِلُّه إلا الخيام وأشجار الأنبج، مع هذا فكان الزحام شديدًا، ولو كانت الترتيبات كاملةً لاغتصَّ المعرض بالجموع الحاشدة من الناس.

فلما أخذ الحضور مجالِسَهم أعلَنَ القس «نولس» – طبقًا لما اصطلحوا عليه – أنَّه تمَّ اختيار خمسة ممثِّلين من كلِّ دين، ولايكون الإذن بإلقاء الكلمة والمحاضرة عامًا؛ وذلك لأنَّ كثيرًا من النصارىٰ والهندوس أصمُّوا الآذان وضيَّعوا الوقت دونما جدوى في الاجتماع السابق، فكان الاجتماع ثقيلاً غير مُمْتِع؛ فطلب علماء المسلمين من القس «نولس» ألاّ يسمح كلَّ من هبَّ ودبَّ من الناس بالإلقاء؛ لأنَّ ذلك لايُجْدِي نفعًا. والأولىٰ أن يتمَّ اختيار عدد من الممثلين من كل دين. على هذا فتَمَّ اختيار خمسة ممثلين من كل دين.

المُمثِّلون من المسلمين

تمَّ اختيار الشيخ السيد أبو المنصور المعروف بالشيخ منصور علي، والشيخ السيد أحمد علي، والشيخ ميرزا موحد ممثلين من المسلمين، وهؤلاء الثلاثة بارعون في فنّ الحوار والمناظرة وإفحام الخصم. كما تمَّ اختيار اثنين من العلماء، وهما الشيخ أحمد حسن الأمروهوي[1]، والشيخ محمد قاسم، إلا أنَّ اسمه كُتِبَ لمصلحةٍ

(١) الشيخ السيد أحمد حسن بن أكبر حسين الأمروهوي (١٢٦٧-١٣٣٠هـ/ ١٨٥٠-١٩١٢م) المحدث الجليل، تلقى التعليم الابتدائي في قريته، ثم أخذ العلم عن كبار العلماء في عصره، وكان من أجل وأخص تلامذة الإمام محمد قاسم النانوتوي، وقد أخذ إجازة الحديث عن كل من المحدث الشيخ أحمد علي السهارنفوري، والشيخ عبد الغني المجددي، والشيخ المقرئ عبد الرحمن الفاني فتي، تولى التدريس والإفادة في عدة مدارس، وله مؤلفات ورسائل علمية. توفي مصاباً بالطاعون. (قاسم العلوم للكاندهلوي ص:٢٢٨)

«الحافظ خورشيد حسين»[1] بدلاً من اسمه المعروف محمد قاسم.

الممثلون من المسيحية والهندوسية

كما اخْتِيْرَ من النصارى القس «نولس» وأربعة غيره، وخمسة من الهندوس. بل طلب الهندوس أن يُخْتَار ممثلوهم من كل فرقةٍ من الديانة الهندوسية ففُعِلَ.

علماء المسلمين يطالبون القس «نولس» بالإجابة

فلما انتهى القس من تغيير النظام في الاجتماع طالبه علماء المسلمين بالإجابة عما أوردوا عليه من الاعتراضات في الاجتماع بالأمس تتميمًا للبحث. فقال القس: «لقد مضى الأمس بما فيه» فتبادل الفريقان الإصرار والإنكار، فحزِنَ على ذلك بعض علماء المسلمين وقالوا: «إن كان القس على ماهو عليه من قلة الإنصاف فما ذا نرجو من حوار اليوم، فأرادوا أن ينهضوا من الاجتماع. إلا أنَّ الشيخ محمد قاسم لم يوافقهم، وقام وقالَ بصوت جهوري: اسمعوا أيها الحضور! قد بقي الإجابة في عنق القس عن الاعتراضات التي أوردناها بالأمس، وكنا لانتوقع من عدل القس وإنصافه أنه لايجيب عن اعتراضاتنا. فلما أبى كلَّ الإباء اضطررنا أن نصبر ونأذن ببدء الحوار وقال للشيخ «موتي ميان» أن يسجِّلَ ذلك.

(١) كان الاسم التاريخي للشيخ محمد قاسم خورشيد حسين.

يُتِمُّ الشيخ محاضرته التي كانت قد بقيت ناقصة

لعلَّ بعض علماء المسلمين قالوا: لِيُتِمَّ الشيخ محمد قاسم محاضرته التي كانت قد بقيت ناقصةً بالأمس، ووافَقَهم القس على ذلك قائلاً: «فليبدأ عُلماء المسلمين بالحوار اليوم» فأشار علماء المسلمين إلى الشيخ أن يبدأ على اسم الله وبركته، إلا أنه قبل أن يذهب إلى مخيّم الحوار تقدّمَ إليه القاضي «سرفراز علي» الشاهجهانفوري – الذي كان إقطاعيًا كبيرًا ثم ساءت أوضاعه في ثورة ١٨٥٧م، وكان عالمًا جليلاً وبارعًا في فنّ المناظرة – وقرأ عليه مقالته التي أعدّها من قبلُ. لايحضرني الآن ماجاء فيها بشكل جيدٍ. أظنُّ أنه كان قدجاء فيها: «لما جاء سيدنا عيسى عليه السلام رسولاً؛ كفر به اليهود، ثم جاء سيدنا محمد ﷺ رسولاً؛ فكفر به اليهود والنصارى جميعًا. لايحضرني أكثر من ذلك وا أسفاه! ولو حضرني لكان ممتعًا جدًا.

وبالجملة أنَّ علماء المسلمين قرؤوا هذه المقالة وتسامعوا، واتفقوا على أن تلقى هذه المقالة كمحاضرةٍ، فقال الشيخ محمد قاسم للقاضي: «تقدَّم واقرأ المقالة على الحضور» فتقدّمَ القاضي، فقال له القس: «هل أنت من الممثلين الخمسة الذين تمَّ اختيارهم لإلقاء المحاضرة؟».

فقال القاضي: لا! فقال القس: فلماذا تقدَّمت للإلقاء؟ فقال القاضي مشيرًا إلى الشيخ محمد قاسم: إنه مسموح بالإلقاء، وإنه

يسمح لي به. فقال القس: لايلقي إلا هو. فقام الشيخ محمد قاسم لإلقاء المحاضرة، فقال له الشيخ أحمد علي: «بيِّن فضائل دينك اليومَ ولا توجِّهْ اعتراضًا إلى أيّ دين».

التوحيد

فتقدّمَ الشيخ محمد قاسم إلى المنصَّة، وقامَ حيث يقوم المحاضر، وحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثمَّ تصدّى لموضوع التوحيد والنبوة. ولايحضرنِي جيدًا ما قال عن التوحيد والنبوة في هذا اليوم. وأظنُّ أنَّ حديث اليوم كان أقرب إلى ما قال بالأمس. إلا أنه قال: المسلمون يتمسكون بالتوحيد لحدِّ أنهم يرون محمدًا ﷺ أفضل من الجميع بعد الله تعالى. ولا يجوِّزون القيام له واضعًا إحدى يديه على الأخرىٰ الذي هو أدب من آداب العبادة.

هل تتوقف النبوة على الأعمال الصالحة أم على المعجزات؟

ثم تحدَّث عن الاحتياج إلى النبوة والرسالة، وقالَ ما قاله بالأمس، وخلاصته: يجب أن ننظر من هو نبي ومن هو ليس بنبيٍّ؟ ومعرفة ذلك تتوقف على معرفة أساس النبوة ومبناها، وفيما يبدو أنَّ النبوَّةَ تتوقف إما على الأعمال الصالحة وإما على المعجزات. أما المعجزات فلا تتوقف النبوة عليها؛ لأنَّ ذلك يعني أن يظهر المدعي للنبوة المعجزات ثم يُشَرَّف بالنبوة، ويعلم الجميع أنه لاتُعْطى النبوةُ بعد الامتحان في المعجزات وإنما تظهر المعجزات على يده بعد ما يُشرَّف بالنبوة. أما الأعمال الصالحة فلا تتوقف النبوة عليها كذلك؛

لأنّ العمل الصالح عبارة عن عملٍ يُرضي الله تعالى، وإنما لمعرفة أحكام الله تعالى نحتاج إلى النبوة، ومعرفة الأعمال الصالحة والقيام بها تتوقف على النبوة كذلك، فلماذا تتوقف النبوة على الأعمال الصالحة؟.

الأخلاق الفاضلة

وإذا نظرنا – سِوَى الأعمال والمعجزات – إلى الأخلاق الفاضلة، وجدنا أنها لاتتوقف على النبوة، وإنما يُجبَلُ عليها الإنسان، فإذا كان رجلٌ صاحب الأخلاق الفاضلة أي عاملاً بما يُرضي الله تعالى فكيف لاتلتفت إليه العناية الإلهية؟.

الفرق بين النبي وأفراد أمته

والجدير بالذكر أنه كما أنَّ الشمس، والقمر، والكواكب، والمرآة المصقولة وذرّات الأرض المتلالئة تتفاوت في النور فكذلك بنو آدم يتفاوتون في الأخلاق والفهم؛ فالذين هم بمنزلة الشمس والقمر والكواكب في النور فهم أنبياء، وأما الذين هم بمنزلة ذرات الأرض المتلالئة فهم أفراد أمتهم، مهما كانوا صالحين أولياء الله.

أخلاق الأنبياء أصيلة، وأخلاق أمتهم تابعة

ثم إنَّ أخلاق الأنبياء أصيلة، وأخلاق أمتهم تابعة لها، كما أنَّ أنوار الشمس والقمر والكواكب أصيلة، وأنوار المرآة والذرّات والأرض تابعة لها. فالذين أصلاء في الأخلاق فهم جُدراء بالجوائز والمكافآت؛ لأنهم إذا فاقوا غيرهم كانوا أكثر تقربًا إلى الله الذي هو

أعلى رتبةً من كلِّ شيء. فهم يحظون بالتقرب الذي يجب أن يحظى به الأنبياء، ويستحقون خلافة الله؛ لأنَّ نيابة الملك وخلافته لايحظى بها إلا من كانوا مقربين إليه. وما النبوة إلا خلافة الله، فكما أنّ أحكام من تحت السلطان من الحكام هي نفس أحكام السلطان فكذلك أحكام الأنبياء عليهم السلام هي نفس أحكام الله تعالى.

محمد ﷺ يفوق الأنبياء في مكارم الأخلاق

وجملة القول أنَّ أساس النبوة على كمال كرم الأخلاق، فلما نظرنا من هذه الناحية؛ وجدنا محمدًا ﷺ يفوق النّاس جميعًا في مكارم الأخلاق، وأكبر دليلٍ على كرم أخلاقه هو الجهاد في سبيل الله – الذي هو موضع اعتراضٍ كبير على الإسلام، مع أنه يُوجَد في الأديان الأخرى، وأنّه خير وسيلةٍ لتهذيب العالم ورفع الشرك والإلحاد والفتنة والفساد منه – الذي لم يكن سهلاً ميسورًا له إلا بالجيش الجرار. فكيف أمكن له إعداد الجيش الجرار الذي دَاخَ الروم والشّام والعراق وإيران ومصر؟. وفيما يبدو أنه يَتِمُّ إعداد الجيش بالمال أو الحكومة. أما المال فلم يكن محمد ﷺ ثريًا ولا تاجرًا ولا إقطاعيًا استأجَرَ الجيش وغزا الغزوات، وأما الحكومة فلم يكن ملكاً ولا أميرًا ولاحاكماً اكتتب له رجل أو رجلان من كل بيت، فتكَوَّن الجيش شأنَ الحكومات في الماضي، واستولى به على البلاد. لم يكن إعداد هذا الجيش إلا بكرم أخلاقه. تأثَّر إخوانه بأخلاقه الفاضلة بحيث أصبحوا يضحون له بنفسهم ونفيسهم وغاليهم

ورخيصهم. ولم تكن هذه التضحية والتحمس ليوم أو يومين، وإنما قضوا أعمارهم مُتَحمسين ومُضَحِّين له، ففارقوا لأجله أهلهم وأسرتهم وبلادهم، وقاتلوا أقاربهم وبني جلدتهم؛ فقتلوهم أو قُتِلوا بأيديهم. ألم يكن ذلك بفضل أخلاقه ومحبته؟.

فقد استأسَرَ – بفضل أخلاقه – العرب العصاة العتاة بشكلٍ لم يعهده أحد أن يستأسر قومًا ألين طبعًا. فهل كانَ مثلَ أخلاقه أخلاق سيدنا آدم عليه السلام، أو سيدنا نوح عليه السلام، أو سيدنا إبراهيم عليه السلام، أو سيدنا موسى عليه السلام، أو سيدنا عيسىٰ عليه السلام؟.

كأنَّ على رؤوسهم الطير

كان الشيخ يلقي محاضرته، و النّاس كأنَّ على رؤوسهم الطير، وكانوا آذانًا مصغيةً، وعيونًا باكيةً، و القساوسة ساكتون لاحراكَ بهم، فلما أبلَغَ القس الشيخَ بأنَّ دوره قد انتهى، بقي في نفوس السامعين حسرة لم تُقْضَ، فقال الشيخ محمد قاسم: أيها الحضور! أنا معذور لقلَّة الوقت، وإلا استمررت في الإلقاء حتى المساء، وما قُلْتُ غيض من فيض. فقال الشيخ موتي ميان: «اسمعوا أيها الناس، ما قال هو غيض من فيض».

يستدل القس «نولس» على التثليث مع التوحيد بدلائل سخيفة

عاد الشيخ محمد قاسم إلى مجلسه، ثم قام القس «نولس» وقال: «إنَّ عقيدة التوحيد عند المسلمين أمر محمود، وليتهم اعتقدوا

التثليث مع التوحيد» ثمَّ استدل على إثبات التثليث بنصٍ من كتاب في العهد القديم، وقال: «إنَّ هذا الكتاب يَنُصُّ على ثبوت التثليث» ثمَّ استدل بدلائل عقلية، وزعَمَ أنه لايمكن فهم التوحيد بدون التثليث، فمثلاً لفظة الواحد «١» يشتمل على الطول والعرض والعمق. فهذه اللفظة واحدة لايمكن وجودها بدون هذه الثلاثة. وروح الإنسان، فيها الهوىٰ، والخيال، وشيء آخر نَسِيْتُه، فالروح واحدة، وهي لاتتحقق إلا بدون هذه الثلاثة. والشجر واحد، وفيه الأصل، والغصون، والأوراق. فهو لايكون بدون هذه الثلاثة.

القس يُوَجِّهُ اعتراضًا على عقيدة القدر في الإسلام

تحدَّث القس عن ثبوت التثليث بأحاديث مضحكة، ثمَّ تعرَّضَ لعقيدة القدر عند المسلمين، وقال: إنَّ في الإسلام نقيصةً أخرىٰ، وهي عقيدة القدر، واستدل بالقرآن؛ حيث قال تعالى: «هُوَالَّذِيْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَّمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ»[١]. وذلك يعني أنَّ الله تعالى خلَقَ الناس فيكون بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين.

يفتح الشيخ محمد قاسم النانوتوي على القس

فقال الشيخ محمد قاسم للقس أثناء حديثه: أريد أن أقول شيئًا، ثم تحدث أنت، «قد وجّهت إليَّ اعتراضًا بالأمس قائلاً: «إنّك لم تُبيِّن فضائل دينك، واعترضتَ على ديني» وقد سلكت اليوم نفس المسلك، ثم إن تعرُّضك لعقيدة القدر يدل على فشلك ومغلوبيتك. وآخر حيلة

(١) سورة التغابن، الآية: ٢.

يحتالها القساوسة أنهم إذا انسَدَّت في وجوههم المسالك، تعرَّضوا لقضية القدر زاعمين أن المسلمين لايحيرون جوابًا. غير أني أسمح لك بطرح الاعتراض، وأنا أجيب إن شاء الله، ثم قال، تحدَّث.

القس «نولس» ينهي حديثه الباقي

تحدَّث القس عن الموضوع قائلاً: «فإن سلَّمنا بالقدر كان العبد بريئًا، والله تعالى ظالماً؛ لأنه كتَبَ لكثيرٍ من الناس النار قبل مدة طويلة، وعملوا هم وفق ما كتب، وكان له أن لايخرجهم من النّار ولا يُدْخِلَهم فيها، وإنما كان عليه أن يتركهم وشأنهم. على أنَّ النّاس كلهم سواسية كأسنان المشط، فكما أنهم سواسية في اليد والرجل والعين والأنف والأذن، فكذلك أنهم سواسية في الأرواح. والكفر والإيمان طارئان عليهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

لطيفة

عندما كان القس يقول: إن الناس كلهم سواسية في العين والأذن والأنف قالَ الشيخ نعمان: يا أيها القس ! إلا أنت وأنا؛ لأننا أصلعان. أو قال مثل ذلك رجلٌ من المسيحيين. فتبسَّم القس، وأغرق في الضحك المعلم «جعل» ومن حوله من المسيحيين.

فَشِلَت الحيلة

تحدَّثَ القس وأطنبَ حتى انقضت مدة خمس عشرة دقيقةً، فزعم أنه لم يكمل حديثه، والتفت إلى الشيخ محمد قاسم قائلاً:

«لو تفضَّلتم عليّ ببعض الوقت لتحدثتُ بمزيد من الحديث» لم يرض المسلمون بأن يوسَّع له في المدة، لأنه لم يوسع لهم فكيف يوسعون له؟ وخير أن يكون حديثه ناقصًا، إلا أنَّ الشيخ محمد قاسم فكَّر بأنه إن وسَّع له في المدة فهو يوسع له كذلك، ولا يكون له متسع بأن يقول لوكان لي سعة في الوقت لأشبعت الاعتراض بحثًا ولكشفت اللثام عن الحقيقة. فقال الشيخ: يا أيها القس لسنا مثلكَ، فنحن نوسع لك، فلك أن تتحدث مكان خمسة عشر عشرين أو خمسا وعشرين أو ثلاثين دقيقةً، وتتحدث ما بدا لك، وأنا أقوم بالإجابة عن جميع ما توجه إلينا من الاعتراضات.

ينقلب السحر على الساحر

خلاصة القول أنَّ القس أطالَ الكلام وتشدَّق فيه، فلما انقضت مدة ثلاثين دقيقةً سكَت وعاد إلى مجلسه. ثم قام الشيخ محمد قاسم وقالَ ضاحكاً: «اسمح لي أيها القس ! بمدة ثلاثين دقيقة» اضطر القس إلى السماح بهذه المدة. فذهب الشيخ إلى المنصة وقال في أوَّل أمره: «كنّا كاسفي البال في اجتماع الأمس؛ لأنه قامَ من القساوسة من لايُحْسِنُونَ الكلامَ ويُضيِّعون الأوقات دونما جدوى. إلا أننا سُرِرْنا اليوم جدًّا بما سمعتُ من محاضرة القس؛ فهو خطيب مِصْقَع ذو مواهب، ويحلو لي أن أجيب عن اعتراضاته».

بين الدعوىٰ ودليلها تباين

وبالرغم مما يتمتع به القس من مواهبَ قارف أخطاءً فادحةً،

أُبيّنها إيضاحًا للحقيقة لاحطاً من كرامته، فقد طرحَ دعوى ودلَّلَ عليها بدليلٍ لايُثْبِتُها. فبين الدعوى ودليلها تباينٌ؛ فهو يدّعي بأنَّ الله واحد حقيقي، ومتعدد مع الوحدة الحقيقية، أي هو ثلاثة. فقد دلَّلَ القس على اجتماع الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية، بدليل يُثْبِتُ الكثرة الحقيقية والوحدة الاعتبارية، ولايُثْبِتُ دعواه.

جميع الأمثلة التي قدَّمها القس خاطئة

جميع الأمثلة التي قدمها القس هي من هذا النوع، فإيضاحًا لمثالٍ واحد أقول: إن كان في إناء سُكَّر، وفي آخر عطر، وفي ثالث ماء، ثم مُزِجت هذه الثلاثة بعضها ببعضٍ، واتُّخِذَت شرابًا؛ فهذه الثلاثة وإن كانَت تبدو واحدًا يراها العقل ثلاثة أشياء مختلفة الحقائق، فهي مُزِجَتْ بعضها ببعض طلبًا في ثلاثة طعوم، فإن لم تبق هذه الثلاثة – بعدما أصبحت شرابًا – لم تحصل ثلاثة أشياء المطلوبة من الحلاوة والرائحة الطيبة وإطفاء الغلّة، ولأصبحت شيئًا آخر. فكما أنَّ هذه الثلاثة اجتمعت في إناء واحدٍ، وتبدو – بالرغم من الكثرة والتثليث الحقيقي – واحدًا ولايمكن للعين تمييز بعضها من بعض؛ فكذلك الأمثلة التي قدَّمها القس يجتمع في كل واحدٍ منها ثلاثة أشياء تبدو لنظرة عابرةٍ واحدًا، ولايتميز بعضها من بعض. والحقّ أنه اجتمع في كل مثال ثلاثة أشياء مختلفة متمائزة عند العقل، أي لكل شيء تأثير مستقل وغرضٌ منفرد، فمثلاً لهوى النفس غرض ولقوة الخيال غرض آخر. ولو أصبحت هذه الأشياء بعد

اجتماعها واحدًا، ولم تبق متعدداً لم تحصل هذه الأغراض الثلاثة المطلوبة. وقس على هذا الأمثلةَ الأخرى.

فالطول والعرض والعمق ثلاثة أشياء اجتمعت في شيء واحد، والأصل والغصون والأوراق ثلاثة أشياء اجتمعت في شيء واحد. وفي مثال الشجرة تبدو هذه الأشياء الثلاثة لكل ذي عينين واضحةً جليّةً.

علاوةً على ذلك فإن كان لابد من الاتحاد والوحدة فهذا الاتحاد والوحدة يوجد في الأعداد الأخرى كذلك، فما مزية الثلاثة فيعتقدوا بالتثليث ولا يعتقدوا بالتربيع والتخميس؟.

الأمثلة الخاطئة للقس

فإذا تأملنا في الأمثلة التي قدّمها القس وجدنا في كل مثالٍ أكثر من ثلاثة أشياء؛ فإذا كتبنا عدد « ١ » كان فيه الطول، والعرض، والعمق الموهوم، والسواد، ولموع السواد، وجمال الخط. كذلك في روح إنسانية صفات وكيفيات كثيرة، وفي قس أخلاق محمودة متعددة، وفي إله صفات كمالية متنوعة، وفي شجرة أغصان وأزهار لاتحصى، وفي هذه الخيمة حبال، وأعمدة من الخشب عديدة، وهلُمّ جرًا.

ثم إنّ هذه الصفات والكيفيات في كل روحٍ إنسانية، والصفات الكمالية في كل إله، والأخلاق المحمودة في كل قس، والأغصان والأزهار الكثيرة في كل شجرة. فإن كان هذا هو اجتماع

الكثرة الحقيقية والوحدة الحقيقية فما بال القس يكتفي بالتثليث؟ ولماذا لا يعتقد بالتربيع والتخميس والتسديس والتسبيع والتثمين بل التأليف؟.

قولٌ معاكس للحقيقة

ثم إنّ القس قال قولاً معاكسًا للحقيقة بأنَّ التوحيد لايوجد بدون التثليث. فإن أبى أن يقول كان له أن يقول: إنّ التثليث لايُوجد بدون التوحيد؛ لأنّ الثلاثة عبارة عن اجتماع ثلاثة وحدان. فيظهر من ذلك أنَّ فهم الثلاثة و وجودها يتوقف على الواحد، وأما فهم الواحد وتصوره فممكنٌ بدون الثلاثة.

اجتماع الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية مستحيل

وبغَضِّ النظر عن كل ذلك إنَّ اجتماع الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية في شيء واحد مستحيل، فكما أنَّ اجتماع وجود شيء وعدمه، والشمس والظل، والحرارة والبرودة في مكانٍ واحدٍ وفي وقتٍ معًا مستحيل، لايُسَوِّغ هذا الاجتماعَ عقلُ عاقلٍ، فكذلك اجتماع الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية مستحيل لايُسَوِّغ اجتماعهما عقل عاقل.

على أنَّ الجاهلين بفنٍّ يجب عليهم أن يتبعوا الماهرين في ذلك الفنَّ، فنظرًا إلى ذلك كان يجب التسليم باجتماع الاستحالة؛ لأنَّ هذه القضية من القضايا العقلية، فقد أجمع المناطقة على أنَّ اجتماع النقيضين واجتماع الضدَّين مستحيل. فإن كانت الوحدة الحقيقية

والكثرة الحقيقية مضادَّتين فكيف يُسَلَّمُ باجتماعهما؟

نداء من كاتب السطور

هذه خلاصة القول في التثليث، وإيضاحًا للحقيقة يقول كاتب السطور: إنْ جوَّز فاقد عقل أنَّه ليس بين الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية تناقض، كان لمعتقدي التثليث سعة بأن يقدِّموا عقيدة التثليث إلى المجانين، وفاقدي العقول دون العقلاء، ولما لم يكن أحد من الناس يجوّز هذا الاجتماع فلماذا يقدمون قضية التثليث أمام أهل التوحيد. ليس في دين من أديان العالم – مهما كان باطلاً – عقيدة تُضَادُّ العقل كالتثليث، ويا للأسف! إنّهم يعتقدون بعقيدة مضادة للعقل، ويوجهون إلى الإسلام اعتراضًا لا يحتاج إلى الرد عند العقلاء.

فإن كان يجب على الإنسان أن يُسَلِّم بهذا النوع من المستحيلات يجب عليه أن يُسَلِّمَ بكون الظلم والقتل والكذب والخداع والزنا وغيرها من المعاصي ومخالفة الله ورسوله طاعةً وعبادةً؛ لأنّ كون هذه الأمور كلها عبادةً وطاعةً ليس بأبعد عن العقل من اجتماع الوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية. أمِن العدل أن يُسَلَّمَ بالتثليث والتكفير بالرغم من مخالفتهما للعقل، وأن لايُسَلَّمَ بالإسلام الذي ليس فيه شيء يخالف العقل؟ وأن يُسَلَّمَ بألوهية سيدنا عيسى – عليه السلام – بالرغم من احتياجه إلى الأكل والشرب، والاضطرار إلى البول والبراز، والإصابة بالمرض

والموت، وعجزه عند القتل، ويُشَكّ في نبوة سيدنا محمد – ﷺ – بالرغم من معجزاته وأخلاقه وأعماله والعلامات الأخرى، وعدم مخالفة العقل؟ فالعقل هو الهادي في أمور الدين والدنيا، فهم يخالفونه أشدَّ المخالفة فماذا يتبعونه بعدُ؟

الرد على الاعتراض المثار ضدَّ قضية القدر

ثم جاء موعد الرد على الاعتراض المثار ضدَّ قضية القدر. أظنّ أنَّ الشيخ قال: من ديدن القساوسة أنهم إذا فَشِلُوا وأعياهم الأمر لجأوا إلى آخر حيلةٍ يحتالونها، وهي إثارة الاعتراض ضدّ قضية القدر، غير أني أَرُدُّ على هذا الاعتراض ردًّا مُقْنِعًا بمشيئة الله وإذنه. ونظرًا إلى قلة الوقت، ورحمةً بالحضور لا أخوض في المباحث الدقيقة، وإنّما أبيِّنُ أمورًا سهلة التناول.

عمل استفزازي يقوم به قس هندي

على هذا قال قس هندي في عنقه وِسامات الجندي – وأذكر أنّ اسمه كان «أينج» (ANG) –: «أنت تنأى بجانبك عن الإجابة» فغَضِبَ عليه الشيخ أحمد حسن الأمروهوي، وقالَ له أقوالاً لاذعةً، فَهَدَّأَه الشيخ محمد قاسم وقال له: «إنه يقول لي ولا يقول لك» وقال للقس الهندي: «استأذن لي من القس الأكبر، ثم انظر: هل أنا أنأى بجانبي؟».

يلقي الشيخ محمد قاسم النانوتوي كلمةً في حقيقة القدر

وجملة القول أنَّ القس لم ينبس ببنت شفةٍ، فبدأ الشيخ يلقي

كلمته، فبيَّنَ مثالاً وقال فيه: «افرضوا أنَّ رجلاً له قطعة من الأرض ليس فيها بناء، فأراد صاحبها أن يبني فيها منزلاً، فهو – بوصفه مالكاً – حُرٌّ أن يبني فيها مايشاء حيث يشاء؛ فيبني فيها غرفة أو مطبخًا أومرحاضًا، أو مغتسلاً، والأرض لاتمنع شيئًا.

كأنّ الأرض تقول بلسان حالها لصاحبها: «ابنِ فيَّ ما تشاء» ففكَّرَ صاحبها وقدَّر، فبنى فيها غرفة للجلوس، أو غرفتين متجاورتين وغرفةً فوقها غرفة، ومطبخًا، ومرحاضاً، وبالوعةً، وبابًا حتى تمَّ بناء المنزل.

فكما أنَّ صاحبها قبل البناء كان حرًا أن يبني فيها حيثما يشاء فكذلك حر أن يستخدم المنزل كيف ما يشاء؛ فيستخدم الغرفة مرحاضًا والمرحاضَ غرفةً، إلا أنه كما راعى عند البناء ما يليق بكل شيء فكذلك يراعي عند الاستخدام ما يليق بكل شيء أي كما أنه راعى أنه إن بنى غرفةً في غير موضعها فَسَدَ تصميم المنزل، فكذلك يراعي عند الاستخدام أنه إن استخدم شيئًا من مباني المنزل في غير موضعه كان ذلك ضدَّ العقل والأدب.

وإذا فرضنا أن المرحاض أُعطِيَ لسانًا، فيقول: «ما ذنبي؛ فتُلْقَى فيَّ الأقذار والنجاسات؟ ومافضل الغرف؛ فتُفْرَش بالفُرش الجميلة والسجاجيد الفاخرة، وتُضَاء بالثريّات والمصابيح، وتُزَيَّنَ بالزهريات، وتُعَطَّر بالعطور ذات الروائح الطيبة؟ فأسألكم أيها الحضور ! ماذا يجيب صاحب المنزل، أليس يجيب هو: أنا بنيتك لذا،

وهذا يليق بك، وبنيتها لذاك، وهو يليق بها.

فلما كنا نحن المالكين اسميًا نتحكم في الأرض والمنزل والمرحاض فكيف لا يتحكم الله – وهو مالك الملك وحده لاشريك له – في مخلوقاته؟ وأما مالكيتنا فمعرّضة للزوال، وهي تزول بالبيع والشراء والموت. وأما وجود المنزل فليس بتابعٍ لوجود صاحبه. وإذا مات صاحب المنزل بقي المنزل قائمًا، فبالرغم من المالكية المعرَّضة للزوال نتحكم في مملوكاتنا كما نشاء. وأما مالكية الله تعالى فهي لاتزول أبدًا. بل كما أنَّ الشمس – على ما بين الشمس والأرض من بُعْدِ مئات آلاف ميل – إذا طلعت صَحِبها الضوء، وإذا غربت ذهبَ معها الضوء. والأرض – على ما بينها وبين ضوء الشمس من قربٍ واتصالٍ – لاتستطيع أن تمسك ضوء الشمس ساعةً أو ساعتين؛ فتغربَ الشمس وحدها دون ضوئها؛ فكذلك مالكية الله تعالى ووجود المخلوقات؛ فوجودنا – وهو يَستقل عن وجود الله، وليس وجودنا ووجود الله متَّحدَيْنِ – بيد الله تعالى وتحت أمره، فإن شاء أعطانا إياه. وإن شاء لم يعطِنا إياه. ووجودنا – على ما بيننا وبينه من قربٍ واتصالٍ – ليس في أيدينا، فإن شاء الله سَلَبَناه، وإن نشأ أن نسلب الله إياه فلا نتمكن.

أوافرضوا أنَّ صاحِبَ منزلٍ أسكن في منزله أناسًا من الرعية، فهو – وإن كان بعيدًا عن المنزل وهم يسكنون فيه – يملك المنزل بقدر ما لايملكونه، فهو يستطيع أن يخرجهم من المنزل، وهم

لايستطيعون أن يزيلوا يده على المنزل.

فوجودنا – وإن كان يتصل بنا ويقرب مِنّا – بيد الله تعالى، وإن كان على حدة عنه، فكما أنّ يد الشمس على ضوئها لاتزول فكذلك يد الله تعالى لاتزول عن وجودنا، فلما كانت يده لاتزول عن وجودنا كان ملكه دائمًا غير زائلٍ؛ فعِلّةُ الملك هي اليد الكاملة، فملك ما تَوحَّشَ من الحيوانات وما في البحر من الأسماك بالقبض عليه، وهذه التي تنتقل في البيع والشراء.

وكما أنّ ضوء الشمس المنتشر على الأرض ليس من صنع ذات الأرض وإنما هو مستعار من الشمس، فكذلك وجودنا ليس من صنع ذاتنا وإنما هو مستعار من الله تعالى، وأما وجوده تعالى فهو من صنع ذاته، وطبيعي أن الشيء المستعار لايكون ملكاً للمستعير، وإنما يكون ملكاً للمعير، فلا تزول يده عليه، على هذا فلا يكون ملك الله قابلاً للزوال، ولزم الاعتراف بأن ملكه أزليٌّ وأبديٌّ.

فبالرغم من هذه اليد والمالكية التي نتمتع بها اِسميًا، والتي هي معرَّضة للزوال دائمًا نتحكم في مملوكاتنا، ولاندع أحدًا يعترض علينا. فالله مالك الملك – الذي مالكيته أبدية أزلية، ويده دائمة سرمدية، والذي أعارنا الوجود من وجوده – كيف لايتحكم في مملوكاته بأن يقول للعصاة: أنتم جدراء بهذا، وقد خلقناكم لذا. والمطيعون من عبادي جدراء بذلك، وقد خلقناهم لذاك.

وقد جاء في هذا العالم من اجتماع الصالح والطالح من الاتّزان ماجاء في المنزل من اجتماع الغرفة والمطبخ. فكما أن اجتماعهما يدلّ على كمال المنزل فكذلك اجتماعهما يدل على كمال العالم.

لم يبق في الوقت متسع بعد أن ألقى الشيخ كلمته، وانتهت ثلاثون دقيقة، فعاد الشيخ إلى مجلسه، ثم قام القس وقال: «إني لا أحبّ مثال المرحاض» وقال مسيحي آخر و هو في مجلسه: «إذن فالأرض مرحاض الله» فقام الشيخ ثانيًا وقال: إنّ المناقشةَ في الأمثلة بعيدة عن الإنصاف، فبين المنزل وصاحبه مناسبة؛ لأنهما مخلوقان، وأما الخالق والمخلوق فليست بينهما مناسبة، فهذا خالق وذلك مخلوق، وهذا واجب الوجود، وذلك ممكن الوجود. فالمخلوقات أقل رتبةً من المرحاض، وأما العصاة منهم فهم أدنى وأحقر منزلاً.

على أن أمثلة الله والعباد توجد في كل دين، وخلاصة هذه الأمثلة أنَّ الله تعالى كامل، والمخلوق ناقص، فلما كان النظر في هذه الأمثلة إلى الكمال والنقصان، ولاينظر إلى الأشياء التي تصورها من المستحيلات في ذات الله تعالى، فيركز النظر في مثال المنزل على ما بين المباني من فرق الكامل والناقص. مع ذلك فالمنزل بما فيه الكامل والناقص تحت أمر صاحبه، لايعصيه الكامل والناقص، فكذلك العالم بما فيه الكامل والناقص بيد الله تعالى، وتحت أمره.

مثال آخر

على أنه إن شئتم فخذوا مثالاً آخر، فقدّمَ الشيخ مثالاً آخر. وقد نسيته. إلا أنَّ الشيخ قال مرارًا بعد انتهاء الحوار. افرضوا في المثال إصطبل الحمير وحظيرة الخنازير بدلاً من المرحاض، وافرضوا النقاش بينه وبين رب المنزل. فيذهب الاعتراض في مهبِّ الرياح.

طلاقة لسان الشيخ ويأس القس

وإجمال القول أنَّ طلاقة لسان الشيخ وقوَّة عارضته ويأس القس وتشاؤمه آنذاك كان أمرًا مشهودًا. فلما انتهى الشيخ من كلمته أعلنَ القس بأن يتقدّم علماء الهندوس، ويُلْقُوا كلماتهم. فقام منهم عالم هندوسي إلى منصة الخطابة، إلا أنَّ قسا هِنْديًّا جالسًا بجنب القس «نولس» تَدُلُّ جِلْسَتُه على أنَّ له الرتبة الثانية بعد القس «نولس» — مالَ إلى القس «نولس» وناجاه، ويبدو أنه كانَ يقول له: «أريد أن أُلْقِيَ خطبةً — غثًا كانت أو سمينًا — طردًا للعار ودفعًا لسوء السمعة، وإلا قِيْلَ أنَّ القساوسة لم يجيبوا عن اعتراضات علماء المسلمين. فقال القس: «إنَّ قسنا هذا يريد أن يتحدّثَ إليكم شيئًا» فقال الشيخ: حسنًا، إذن نتحدّث نحن كذلك.

المطلق والمقيّد

وبعد نِقاشٍ يسيرٍ قام ذلك القس الهندي وقال: «استدلَّ الشيخ بأدلّةٍ من المنطق كثيرةٍ، والمنطق علم يبحث عن أمور كثيرة

لايفهم معظمها أحد من النّاس. والأدلّة على ضربين: أحدهما مطلك (مطلق) وثانيهما مكيّد (مقيد) فالمطلك (المطلق) ما يكون داخل الإطار، والمكيد (المقيد) ما يكون خارج الإطار». فقد بلغت صحة اللفظ والمعنى في كلمته غايتها؛ فكانَ يقول «الكاف» بدل «القاف» ويُعَرِّف المقيَّد بحدِّ المطلق، والمطلق بحدِّ المقيَّد.

نظر الشيخ «رحيم الله» إلى الشيخ «فخر الحسن» والشيخ «محمود حسن» فتضاحكوا، فأراد الشيخ محمد قاسم أن يقوم ويَرُدَّ على القس، وكان غرضه من وراء ذلك أن يقول للقس: «إنَّكَ لم تَرَ علماء المنطق، وإنه يُوْجَدُ علماء – بفضل الله ومشيئته – يستطيعون أن يخترعوا المنطق من جديد، بلهَ فهم مسائله» فمنعه الشيخ «أحمد علي» النكينوي قائلاً: من تقوم للردّ عليه والنقاش معه؟ فقد حَصْحَصَ الحق؛ فلا حاجةَ إلى ذلك أصلاً.

كان ذلك في نهاية الاجتماع، وقالَ الشيخ محمد قاسم: «كيف اجترأ القس على الاعتراض على مثال البراز؛ فإنَّ إلهه ليس منزَّهًا عن البول والبراز». لم يذكر الشيخ ذلك أثناء خطبته إما تفاديًا من الإساءة إلى أحد، وإما لم يحضره آنذاك.

ثم جاء دور علماء الهندوس، فألقوا كلماتهم، حتى كانت الساعة الثانية، فقام منهم عالم هندوسي، تقدّم ذكره، وقدَّم مقالةً مكتوبةً بالخط الناغوري، ولم يفهم معظم مضمونها علماء المسلمين لكونها باللغة السنسكرتية.

وكلُّ ما فهمته وأذكره هو أنه جاء فيها «لاينبغي أن تتطرق الأهواء إلى المناقشات» كما جاء فيها «وما استدلَّ به القس من كثرة ترجمات الإنجيل يعني أنه إذا كان الشيء أكثر عددًا كان أفضلَ؛ فحشرات الأرض أكثر عددًا من بني آدم؛ فهل هي عادت أفضل منهم». أو قال ذلك بشكل شَفَويٍ. وأذكر أن العالم الهندوسي قال آنذاك مشيرًا إلى الشيخ «محمد قاسم»: «أنا أسأل الشيخ ماهي الأمور التي يُحْتَاج إليها النبوة؛ فقال القس – قبل أن يرد الشيخ –: «قد سبق أن أوضح الشيخ أثناء خطبته أن النبوة تحتاج إلى الأخلاق» وأجابَ الشخ بنفس الإجابة.

لاذ العالم الهندوسي بالصمت بعد كُليمات، ثم قام عالم هندوسي آخر وقرأ مقالةً طويلةَ النَّفَسِ مكتوبةً بالخط الناغوري كانت معظم كلماتها من اللغة السنسكرتية، كما كانت بعض الأبيات في هذه اللغة؛ فلم يتمكن علماء المسلمين من فهمها كلَّ الفهم، وكلُّ ما فهمناه هو أنه أنحى صاحبها باللائمة على الهندوس في شأن أقوالهم وأعمالهم، ولم يكن فيها من العلم شيءٌ يُذْكر.

حِلَّة اللحم

ثم قرأ المنشئ «بياری لال» مقالةً جاء فيها أنَّ أكل لحوم الحيوانات ظلم، وأنَّ المسلمين لا يأكلون صيد الحرم؛ فعُلِمَ أنَّ أكل اللحم لايجوز عندهم كذلك. فَرَدَّ الشيخ «أحمد حسن» عليه قائلاً: الظلم عبارة عن أن يتصرف أحد في شيء بدون إذنٍ من صاحبه،

فإذا تصرف فيه بإذن من صاحبه فليس بظلم، فنحن المسلمين نأكل لحوم الحيوانات بإذنٍ من صاحبها، وهو الله تعالى. وأما حيوانات الحرم فمثلها كمثل رجلٍ يحب الحيوانات التي تعيش في ديار حبيبه، ولا يأكل لحومها مع كونها حلالاً.

إجابة القس «نولس»

ثم قام القس «نولس» وقال: يشتد البرد في بعض الأقاليم في الشمال؛ فلا تُنبت أرضها زرعًا ولا نباتًا، وتوجد فيها الحيوانات، ويسكن فيها الناس، فإن لم يحل لهم لحوم الحيوانات هلكوا جميعًا، وبعيد عن رحمة الله أن يخلق النّاس في أرضٍ ولايخلق لهم الغذاء، فغذاؤهم هو هذه اللحوم، فإن لم تَحِلَّ لهم ماتوا جوعًا.

نهاية الاجتماع

ثم انتهى الاجتماع، وقيل لعلماء المسلمين: «إنه لا تجري المناقشات والمناظرات غدًا». فقام الشيخ «محمد قاسم» وأقبل على القس، وقال له: «نشكركم على خلقكم، ونستأذنكم للذهاب الآن» وقال القس: «نحن أُعْجِبْنَا بأخلاقكم جدًا» فتبادلا التعريف، فقال الشيخ «محمدقاسم»: «اسمي «خورشيد حسين» وأنا من مديرية سهارنفور».

انتصر الشيخ ذو الإزار الأزرق

فُضَّ عِقْد الاجتماع، فما إن خرج الشيخ «محمد قاسم» حتى أحاط به الناس من المسلمين والهندوس إحاطة السوار بالمعصم،

وكان المسلمون مسرورين جدًا، وكان الهندوس كذلك، وكانوا يقولون: «لقد هَزَمَ الشيخ ذو الإزار الأزرق القساوسة هزيمةً نكراء». وجلس بجانب الشيخ ذلك العالم الهندوسي الذي كان قد وجَّهَ سؤالاً إلى الشيخ أثناء خطبته، وقال له: «أريد من صميم قلبي أن أسأل عن شؤون الدين، فإن كان أحد يسأل فليسأل من كان عالمًا بارعًا في الدين». فقال الشيخ: «صدقتَ والله ! وأنا أرجوك أن تصدقني فيما أقول، وترجعه إلى الصدق والنصيحة لا إلى العصبية والتشدق في الكلام، وأما الطمأنينة في شأن الدين فلا يتصور إلا أن نتعايش ونتعاشر شهرًا أو أكثر، ونتجاذب أطراف الحديث في شؤون الدين وقضاياه» فقال العالم الهندوسي: «نعم وكرامةً» ورضي بالتعايش معه، ثم لم يُعْثَرْ له على أثر.

لم نسمع خطبًا وبحوثاً كاليوم

وبعد قليل جاء الشيخ «موتي ميان» وقال: «كان القساوسة يقولون: «وإن كان الشيخ «محمد قاسم» يلقي كلمته ضدَّنا إلا أنه من الإنصاف أننا لم نسمع خطبًا وبحوثاً كاليوم».

وأخبر الشيخ «أحمد علي» أنَّ القساوسة كانوا يقولون فيما بينهم: «هُزِمْنَا نحن اليوم».

وبعد صلاة العصر ذهب الشيخ «ميرزا موحد» إلى القس «نولس» وخاض معه في أفانين من الحديث، ثم قال له: «جاء في التوراة نصٌ على القدر، فلماذا جحدت بالقدر في الاجتماع؟» فقال

القس: «أجل! قد جاء في التوراة نص على القدر، إلا أننا نحن المسيحيين فرقتان، فرقة تؤمن بالقدر، وفرقة لاتؤمن به. ونحن من الذين لايؤمنون بالقدر».

وقد عَلِمَ أولو الألباب من قوله أنَّ اعتراضه على القدر ضدَّ الشيخ «محمد قاسم»، والذي ردَّ عليه الشيخ ردًا مفحماً لم يكن مؤجّهاً إلى المسلمين فحسب، وإنما إلى التوراة كذلك، مما هدَمَ بنيان دينه أيضًا.

يدعو الشيخ «محمد قاسم» القس «نولس» إلى الإسلام

وبعد نهاية الاجتماع قال الشيخ محمد قاسم للشيخ «موتي ميان»: «أريد أن أخلو بالقس «نولس» وأدعوه إلى الإسلام» فقال الشيخ «موتي ميان» للقس: «شيخنا «محمد قاسم» يريد أن يخلوبك» فقال القس: «حسنًا».

ثم دخل الشيخ «محمد قاسم» خيمة القس وقال له: «أنا أُعِجبْتُ بأخلاقك، والأخلاق تدعو إلى المحبة، والمحبة تبعث على النُّصح؛ فأريد أن أقول لك شيئًا مما يعود عليك بالنفع وأن تلقي إليّ سمعك، فقال القس: «قل ما بدا لك» فقال الشيخ: تُب عن المسيحية، واعتنق الإسلام؛ فإن الدنيا لفانية، وإن عذاب الله لشديد، فقال القس: «لا ريب» ثم عاد صامتًا. ثم قال الشيخ «محمد قاسم»: «إن كان لك شبهة حتى الآن فادع الله أن يُحِقَّ الحقَّ، فإن كنت تدعو الله ضارعًا فالله يشرح صدرك للحق» فقال القس: «أنا أدعو الله كلَّ يوم أن يشرح

صدري للحق» فقال الشيخ محمد قاسم: أُدعُ الله بأن يشرح صدرك للدين الحق من بين الأديان المتنوعة، وأن يُمَيِّز لك الحق من الباطل» فقال القس: «شكرًا لك على ما أسديت إليَّ من النصح، ولن أنسى ذلك أبدًا».

معارضو الشيخ يعترفون بفضله

وبعد ما انتهى الاجتماع جاءه القس الذي كان قد اتهمه بنأي الجانب عن الحوار، وذلك قبيل العصر، وقال له: «أَتَيْتُكَ لمقابلتك، وأستأذنك للذهاب» فقال الشيخ: «أحسنت إليَّ بمقابلتك» ثم تبادلا التعريف. ثم قال القس: «ألقيتَ أيها الشيخ خطبةً رائعةً» فقال الشيخ: مثلي كما قال الشاعر الفارسي: «ربما يرمي صبي لم يستدّ ساعده، ويخطئ فيصيب الهدف» ثم حيّاه تحيةَ الوداع، وأخذ طريقه. ثم قابله قساوسة آخرون وقالوا عن الشيخ مثلَ ما قال صاحبهم.

ناسك هندوسي يُبْدِي إعجابه بالشيخ

فلما انتهى الاجتماع، وغادر علماء المسلمين ومناظروهم المعرض كان الحضور من الهندوس يشيرون إليهم بالبنان قائلين: «هؤلاءهم» فما إن ساروا قليلاً حتى رأوا على غلوةٍ من قطار العجلات ناسِكاً هندوسيًا متنعلاً بالنعلَيْنِ الخَشَبِيَّتَيْنِ، طويل الشعر، عاري الجسم، بيده مِلْقَاطٌ طويل الساقين، ومعه أتباعه، فأشار هو إلى الشيخ. وقال لأتباعه: «هذا هو الشيخ» فحانت من الشيخ

التفاتة إليه، فسَلّمَ الناسك عليه، فتَلَفَّتَ إليه الشيخ وردَّ عليه السلام بيده. فلما رأى النّاسك التفات الشيخ إليه، أسرع إلى عجلة الشيخ وأخذ بمؤخرتها وقال للسائق: «أوقف العجلة» فقال السائق لأصحاب العجلات الأخرى: أوقِفوا عجلاتكم، فلما وقفت العجلات قال الناسك للشيخ: «أبليت أيها الشيخ! بلاءً عظيمًا» فقال الشيخ: «ما أبليت، وإنما أبلى الله تعالى» فقال الناسك: «صدقت» ثم رفع الناسك يده وأشار بأصابعه، وقَالَ: «لما ألقيت كلمتك رأيت جسم القس قد أخذ يذوب أو قال يَقِلُّ» فقال له الشيخ: «أين كنت ساعتئذٍ» أكنت خارج الخيمة، قال: «لا بل كنت داخل الخيمة» ثم سأله الشيخ عن اسمه، فقال: «اسمي جانكي داس» فقال له الشيخ: لقد شرَّفتني بمقدمك إلى الاجتماع، فقال: «نحنُ أبناؤك وبناتك» ثم سلّم وذهب.

الفضل ما شهدت به الأعداء

اجتمع الشيخ السيد «ظهور الدين» البريلوي بالشيخ «محمد قاسم» في مدينة «أمروهه» وأخبره أنه قال المعلِّم كوئل (Goyal) الذي يعمل مدرسًا في المدرسة الإنجليزية في مدينة «شاه جهان فور»: «رأيت عالمًا كبيرًا من علماء المسلمين». وقال السيد: سألتُ قسًا من القساوسة لماذا لم تناقشوا ذلك اليوم؟ أجاب «لم يدع لنا الشيخ فرصةً للقول والمناقشة، حتى إن قسنا «نولس» هو الآخر لم يحرجوابًا».

وقال الشيخ عبد الوهاب البريلوي للشيخ محمد قاسم: إنه

قابَلَ قسا من القساوسة، فسألت عن اسمه وعنوانه، فبدا لي أنه هو القس «أينج» (Ange) الذي كان قد عيَّر الشيخ بنأى الجانب، والذي كان قد جاءه لمقابلته – فسأل الشيخ عبد الوهاب عن فعَّاليات الاجتماع، فأجاب القس أني حضرت في كثير من الاجتماعات، وناظرت علماء المسلمين، غير أني ماسمعت خطبًا وبحوثاً مثل ذلك اليوم ولا رأيت عالمًا مثل ذلك العالم، كان رجلاً نحيف الجسم، وسخ الثياب، لم يبدو أنه عالم، وقلت في نفسي: ماذا عسى أن يقول، غير أني لا أقول: إنه كان يقول الحق، فلو كنا آمنا بخطبة أحد لآمنا بخطبته».

ثم قال: «إن القساوسة يُثيرون قضية القدر إذا أعيتهم الحيلة، وانسَدَّت عليهم المسالك، وقد لجأ القس «نولس» إلى هذه الحيلة، فأثار قضية القدر، ولكن الرجل أفحمه وألجمه».

رسول لا شيخ

أخبر الشيخَ محمد أحسن في مدينة «بريلي» «رمضانُ خان» الذي يعمل مؤذنًا في المسجد الواقع بقرب منزل الشيخ محمد أحسن فقال له مشيرًا إلى الشيخ محمد قاسم في ذلك المسجد: «أصبح الشيخ محمد قاسم رسولاً» على حدّ ما قال الهندوس. فقد جاء أناس من الهندوس من مدينة «شاه جهان فور» يخبرون عن فعاليات الاجتماع، ويقولون: «جاء من قبل المسلمين عالم نحيف الجسم، وسخ الثياب، متأبط الإزار، ألقى خطبةً لم يتمكن القساوسة من الرد عليها».

محاورات في الدين

في معرض معرفة الذات الإلٰهية المنعقد يوم ١٩ -٢٠/ مارس ١٨٧٧م

في «تشاندافور» بمديرية «شاه جهان فور»

بولاية «أترابراديش» الهند.

مقدمة

بقلم: الشيخ فخر الحسن رحمه الله

يقول شاعر فارسي:

«إنَّ طلوع الشمس دليل على الشمس نفسها، فإن كنت تبغي دليلاً عليها فانظر إلى قرص الشمس ولاتُعْرِض عنه».

اللهمَّ ! أنت المحيط بكل شيء والغالب على كل شيء، وكلُّ باحث عنك ومبتغٍ إيَّاك، إلا أنَّ إدراكك يفوق الوهم، ويعلو الخيال، ويتجاوز القياس؛ فرسولك الصادق: محمد ﷺ أنقذ الناس من عبودية الآلهة المصطنعة، وأيقظ ما أودعتَ قلب كل إنسانٍ من مبادئ الفطرة؛ وعلَّم كلامك المقدَّس: القرآن الكريم الإيمانَ بالغيب و الإنابة إليك، مما يجدر بعبوديتنا وألوهيتك، ويليق بنقائصنا وفضائلك.

اللهم ! إنَّ آخر رسلك: محمدًا ﷺ وأفضلهم الذي نطق بكلامك المقدَّس، وأنار العقل والقلب بنور هدايتك – علَّم علمًا و هدى طريقًا هو للنَّاس الرحمةُ الكاملة والنعمةُ العظمى، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ولا بدَّ للوصول إلى هذا الطريق من الطلب المخلص والشوق البالغ؛ ولم يبخل الزمان – حتى الآن – بورثة الأنبياء وفحول العلماء الذين يُفَسِّرون مرضاة الله ويشرحون علوم الأنبياء مما يشفي صدور السامعين ويَسُرُّ قلوب القارئين.

وقد عُقِدَ معرض «معرفة الذات الإلـٰهية» في «شاه جهان فور» الذي حضره علماء المسلمين والهندوس والمسيحيين، وجرت بينهم مناقشات ومحاورات في الدين. يسجل كاتب السطور: أحقر العباد فخر الحسن مداولات المعرض ويقدِّمها إلى القراء.

* * *

كان المنشئ «بياری لال» من أهالي «تشاندافور» بمديرية «شاه جهان فور» مؤسسًا لهذا المعرض، وكان رجلاً ثريًا وإقطاعيًا كبيرًا، وكان القس «نولس» – الذي كان معلمًا في المدرسة التبشيرية في «شاه جهان فور» إلى العام الماضي، وانتقل الآن إلى مدينة «كانفور» – إذا زار قُرى «شاه جهان فور» وأريافها نزل بقرية «تشاندا فور» وألقى بها كلمته، وكان المنشئ يستمع لكلمته. أخذ القس يستميله إلى نفسه رويدًا رويدًا، ويتودد إليه حتى تأثر المنشئ بالقس الأوربي وأخلاقه وصحبته تأثيرًا شديدًا، وبلغ منه التأثير كل مبلغٍ. ثم إنه زاد المنشئَ لقاؤه إعزازًا وتوقيرًا.

فلما رأى المنشئَ أصحابُه وجلساؤُه أنَّه تغيَّر عما كان عليه من قبلُ، وأخذ ينتقد ما كان عليه آباؤه من الدين، أشاروا عليه أن يعقد معرضًا لمعرفة الذات الإلٰهية في بساتينه على شاطئ نهر «غَرَّا» بقرية «سربانغ فور» بالقرب من «تشاندا فور» ويحضره علماء الديانات المختلفة ويناقشون ويحاورون فيما بينهم بحثًا عن الدين الحق، كما يحضره خلق كثير من الناس من قاصي البلاد ودانيها. مما يتجلى الدين الحق، ويعود المعرض بفوائد أخرى.

وهكذا كان، فقد استأذن المنشئ من السيد «رابرت جورج كهري» حاكم مديرية «شاه جهان فور»، وعقد معرضًا في حَمَّارة القيظ في ٧/ مايو في العام الماضي، حضره القس «نولس» ممثل

المسيحية، والشيخ محمد قاسم والشيخ أبوالمنصور ممثلا المسلمين.

فقد جاءت نتائجه ظاهرةً جليةً؛ فقد حَاز فخارَ النصرِ الشيخ محمد قاسم صاحب الإزار الأزرق، وطبَّق صيته في الآفاق.

لقد تركَ المعرضُ أثرًا كبيرًا على عامة الناس وخاصتهم وشاهدهم وغائبهم، كما قوَّتْ خطب الشيخ محمد قاسم نور الإيمان في قلوب المسلمين، وكشفت الغطاء عن عيون المنشئ الذي كان يرمق إلى القساوسة، ثم وجدهم ساكتين حيارى. وكان عامة الهندوس إذا رأوا الشيخ مارًا بسكة أو طريق قالوا: «هذا الشيخ هو الذي جعل القساوسة خرسًا وبكمًا، فكأنه نبي مرسل».

كان المعرض والمحاورات التي جرت فيه ممتعًا جدًا، مما أثار كوامن الشوق في قلوب الناس إلى معرفة الذات الإلٰهية؛ فتقرر انعقاده في فصل الربيع كل عام، وأما في هذه السنة فقد تقرر انعقاده في ١٩، ٢٠ / مارس، وأصدر المنشئ إعلانات ولاصقات عن المعرض ودعا العلماء الذين كانوا قد حضروا المعرض في السنة الماضية، وكتب إليهم، كما تناولتِ الصحف أخبار المعرض وأنباءه.

الحرص على الدعوة إلى الله

هذا إلى أنّه قد انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم بأنَّ المعرض سيحضره كبار علماء الهندوس والقساوسة. لم يُرِدْ الشيخ محمد قاسم والشيخ أبو المنصور بالحضور في المعرض في هذه المرة ظنًّا منهما بأنَّ السفر يُكَلِّفُ مبالغ باهظة ويؤدي إلى إضاعة الأوقات، إلا

أنهما لما سمعا بأنَّ المعرض سيحضره كبار رجال الدين ومشاهيرهم همَّا بالسفر مخافة أن يحمل الناس عدم الحضور على الإعراض والفرار؛ فسافرا على بركة الله بالقطار من «دهلي» إلى «شاه جهان فور» ومعهما نفر قليل من المحاورين والمتفرجين.

نزلوا من القطار على محطة «شاه جهان فور» في الثالثة ظهرًا في ١٧/ مارس، وقد حضر المحطة الشيخ حفيظ الله خان استقبالا لهم، وذهب بهم إلى منزل الشيخ عبد الغفور، وبالغ في حفاوتهم وأكرم مثواهم. استجموا بالراحة في ١٨/ مارس، وحصلوا على برنامج المعرض، فعرفوا أنه تجري المحاورات في المعرض يومين بدءًا من السابعة والنصف صباحًا إلى الحادية عشرة ضحىً، ومن الواحدة ظهرًا إلى الرابعةعصرًا.

الدعاء لإعلاء كلمة الله

استيقظ علماء المسلمين في الهزيع الأخير من الليل في ١٩/ مارس، ويمموا شطر المعرض، وكان يبعد عن مدينة «شاه جهان فور» نحو ٢٤ كيلومترًا، وكانوا ركَّابًا، وأما الشيخ محمد قاسم فكان ماشيًا على قدميه، فوصل المعرض عند مطلع الشمس؛ فتوضأ من ماء النهر، وتنَفَّل بركعاتٍ، ثم ابتهل إلى الله خاشعًا متضرعًا، وأغلب الظن أنه دعا لإعلاء كلمة الله؛ لأنه كان يقول – منذ غادر دهلي – لكل من قابله أن يدعو الله ليعلِيَ كلمته ويُحِق حقه.

فلما وصلوا المعرض وجدوا الخيام مضروبةً، والقساوسة غُيَّبًا،

فاحتاروا؛ لأن موعد الحوار قد حان، والمحاورين غائبون، فجلسوا في ظلال الأشجار الوارفة بالقرب من خيامهم، وإذا بالسيد «موتي ميان» حاكم المديرية تشريفيًا، حضر، وانقطع إلى تنظيم المعرض، فلما كانت التاسعة نهارًا تراءى لنا رجلان أو رجال من القساوسة، فتأخر الحوار عن موعده أكثر من ساعتين، فاجتمع الناس في قاعة الحوار في الساعة العاشرة.

اختيار الممثلين

استشار الفرق الثلاث بأن يختاروا ممثلين لهم، ويحدِّدوا شروط الحوار والمناقشة، ثم يبدؤوا بالحوار؛ فاخْتِيْرَ الشيخ «محمد قاسم» والشيخ «عبد المجيد» مُمثلَيْنِ من المسلمين، والقس «نولس» والقس «واكر» ممثلين من المسيحية، والباندت «ديانند سرسوتي» والمنشئ «إندرمن» ممثلين من الهندوسية، وكان السيد «موتي ميان» مشرفًا على المعرض.

تحديد فترة الكلمة لكل ممثل

قال القَسُّ «نولس»: يُسْمَحُ لكل ممثلٍ لإلقاء كلمته عن الدين وطرح الأسئلة والإجابة عنها بخمسة دقائق؛ فقال علماء المسلمين: إنَّ الدقائق الخمس قليلة لاتكفي لشرح الدين والمناقشة عنه. وإنما نرى إما أن تجرى الحوارات ثلاثة أيام بأن يلقي كل ممثل كلمته عن دينه ساعة أو ساعتين ويسمع الاعتراض عليه ويجيب عنه يومًا. وإما أن يُسْمَحَ الممثل للكلمة ساعة أو ساعتين وللمناقشة من عشر

دقائق إلى عشرين دقيقةً.

لم يرض القساوسة بأيٍّ من الأمرين أصلاً، وإن قلنا وأصررنا بأن الدقائق الخمس لاتكفي لإلقاء الكلمة؛ فالنزاعات الدنيوية يستغرق فصلها والمناقشة فيها أيامًا وأسابيع فما بالكم بالبحث عن الدين، وهل يتم ذلك في غضون خمس دقائق؟. نحن أعضاء في الاجتماع، ولابُدَّ أن تعيروا اهتمامًا لما نرى، إلا أنهم لم يرفعوا لما قلنا رأسًا.

حيلة القساوسة

تحايل القس «نولس» فجعَلَ المنشئ «بيارى لال» والباندت «مكتابرشاد» عضوين لمجلس الشورى، وقالَ: هذان مؤسسا المعرض؛ فلابد لهما من الرأي، فوافقاه في الرأي لما كان بينهم من تعاقد سري، فظَفِرَ بالحيلة، فقالو: إنما العبرة بكثرة الآراء، ودعا القساوسة كلهم إلى الخيمة وقالَ لهم: لابد من العبرة بكثرة الآراء.

فما أدلى القس «نولس» من الرأي وافقه علماء الهندوس كلَّ الموافقة. اضطُرَّ الشيخ اضطرارًا، ونهض قائلاً: إنما تعملون بما ترون من الرأي، ولا تُعيرون لمشورتنا اهتمامًا، فقد تصدَّعْنا منذ ثلاث ساعات، ولم تلقوا على ما رأينا بالاً؛ فافعلوا ما شئتم، فنحن مستعدون للحوار، سواء حدِّدوا خمس دقائق أو أقل منها.

هذه ميكدة

رجع الشيخ إلى خيمته، وأراد المنشئ «بيارى لال» أن يستشير

السيد «موتي ميان» فعبس السيد «موتي ميان» وقطب قائلاً: «إننا لن نحضر المعرض في الأعوام المقبلة؛ فإنكم لا تسمعون لما يقول المسلمون، وتوافقون القساوسة في آرائهم كلَّ الموافقة دونما روية وتفكير، كلُّ هذا يدل على الميكدة والتعاقد السري فيما بينكم.

ثم جاء المنشئ «بيارى لال» إلى الشيخ محمد قاسم وأخذ يعتذر إليه قائلاً: «أنا عاجز مكتوف الأيدي؛ فالقساوسة لايَسْمَعون لما أرى أصلاً، وأنا أرجوك أن تعذرني وتقبل طلبي، فقال الشيخ: «أنا مضطر إلى قبول ما تدلون به من الرأي، إلا أنه يسوءني منك أنك مؤسس المعرض، ثم تنحاز إلى القساوسة، وكان عليك أن تعاملنا جميعًا بالعدل والسوية، فكرر المنشئ الاعتذار، وشكر الشيخَ جزيلَ الشكر قائلاً له: «إنك تقبل طلبي واعتذاري، وأما القساوسة فمعاندون ومكابرون لايسمعون رأيًا، فإن خالفناهم نخاف ذهابهم.

لا أوافق على هذين الأمرين كذلك

بينما هما كذلك إذ قال الشيخ للمنشئ: «على كُلٍّ فدَعْ ما مضى، إلا أنه عليك أن تَرْضىٰ وتُرْضِي القَسَّ بأنَّ نصف اليوم قد ضاع في النزاع لتحديد الوقت، فليجر الحوار ثلاثة أيام عوضًا عما ضاعَ من الوقت، وأن يُسْمَحَ لكل ممثل نصف ساعةٍ لإلقاء كلمته.وافق المنشئ على هذين الأمرين، ثم ذهب إلى القساوسة، وأتى بالرد من قبلهم بأن القس «نولس» يقول: إني لا أوافق على هذين الأمرين،

إلا أنه إن حال دون مكثي حائل، فالقَسُّ «إسكات» الذي سيصل اليوم يمكث في اليوم الثالث ويحاورك.

تناول علماء المسلمين الغداء، وصلَّوُا الظهر، ثم سمعوا أنَّ الناس سيحضرون مخيَّم الحوار، فدخلوا المخيَّم، فوجدوا أنَّ علماء الهندوس لما يحضروا. وقد اغتصت المخيمات بالمستمعين.

وفيما مضى من الوقت في انتظار علماء الهندوس أقبل الشيخ على القس «نولس» قائلاً: «إنك لم توافقني في توسيع الوقت رغم إصراري. فارضَ بأن ألقي كلمةً ساعةً بعد انتهاء الاجتماع في الرابعة عصرًا بالغد، وتسمع أنت كلمتي، ولك أن تُوجِّهَ الاعتراضات إلى كلمتي بعد انتهائها؛ بل من شاء فليعترض على كلمتي وأنا أرد عليه».

ثم قال القسُّ: «فإن أُلْقِ الكلمة في أوقات الفراغ فهل تسمع أنت كلمتي» قال الشيخ: «نعم! على أن تَسْمَحَ لي بالاعتراض وطرح الأسئلة» فقال القسُّ: «فأنا أسمع كلمتك كذلك».

أسئلة يطرحها مؤسس المعرض

بينما هم كذلك إذ حضر علماء الهندوس، وتحادثوا فيما يُبْدَأُ به الحوار؛ فأجمعوا على أن يُبْدَأَ الحوار والمناقشة بذات الله وصفاته، وإذا المنشئ «بيارى لال» قدَّم رقعةً تحتوي على خمسة أسئلة قائلاً: «هذه خمسة أسئلة أجيبوا عنها أولاً وقبل كل شيءٍ» وهي كما يلي:

الأول: بِمَ خَلَقَ الله الكون ومتى ولماذا؟

الثاني: أ ذات الله محيط بكل شيء أم لا؟

الثالث: آلله عادل ورحيم؟ إن كانت الإجابة بنعم فكيف هو عادل و رحيم في وقتٍ معًا؟.

الرابع: ما الدليل على كون «الفيدا» و «الإنجيل» و «القرآن» كلام الله؟

الخامس: ما النجاة وما السبيل إليها؟

الجموع الحاشدة من المستمعين

قَبِلَ العلماء الإجابة عن الأسئلة الخمسة إلا أنَّ المخيمات قد ضاقت بالجموع الحاشدة من المستمعين؛ فنُقِلَ الاجتماع إلى مكان أوسع وأرحب من ذي قبل، ففُرِشت الأرض ببساطٍ، ووُضِعَ في وسطه مكتب وبجواره سرير يقف عليه المحاضر والمعترض والمجيب، وصُفَّت حواليه الكراسي والمناضد التي جَلَس عليها علماء المسلمين والهندوس والقساوسة ومنظِّمو الاجتماع وكتَّاب المحضر، وأما غيرهم فجلسوا على البساط كما وقف الجماهير من الناس حولهم على أقدامهم.

من يبدأ الاجتماع بكلمته؟

فلما استَقَرَّ بهم المجلسُ تحادثوا: من يبدأ بالإجابة عن الأسئلة؟ قِيلَ لعلماء الهندوس: «قد قلتم في مجلس الشورى: نحن نلقي الكلمة اليوم؛ فتعالوا وألقوا كلمتكم» فاعتذروا وطووا كَشْحَهُم.

ثم أقبلَ القَسُّ «نولس» على الشيخ قائلاً: «ألقِ كلمتك اليوم أيها

الشيخ! قال الشيخ: «ليس لي من عذر، إلا أنَّ الإنصاف كـان يقتـضي أن أكون آخرَ من يلقي الكلمة؛ لأنَّ ديني آخر الأديان». فقال القس لـ «الباندت سرسوتي»: «ما بالك لاتلقي كلمتك اليوم» فقـال البانـدت: «أنا ألقي كلمتي أخيرًا، حتى لاتكون كالحديث الماضي».

قد استغرق هـذ النقـاش وقتًـا طـويلاً، حتـى كانـت الرابعـة عصرًا، فقال القسُّ للشيخ: «أيها الشيخ ألـقِ كلمتـك اليـوم مكـان الغـد، ويقـوم «البانـدت» بالإجابـة غـدًا» ردَّ الـشيخ قـائلاً: «نعـم وكرامةً، ليس لي في الإجابة عـن الأسـئلة مـن عـذر حتـى في اليـوم نفسه، وقد كنتم أنتم تتدافعون فلا يرضون بالمحـاضرة ولا بالإجابـة، فعلى رسلكم حتى أصلي العصر، فأبدأ أنـا بالكلمـة اليـوم كـما أبـدأ بالإجابة غدًا، ومن أراد أن يعترض على كلمتى فهو وشأنه».

يعودُ الناسُ ساكتين حيارى

ذهب الشيخ فصلى العصر، ثم عاد إلى الاجتماع، وقامَ محـاضرًا بصوت عالٍ، فعاد المستمعون سـاكتين حيـارى كـأن عـلى رؤسـهم الطير. ونَصُّ الكلمة فيما يلي:

أكبر غايتي

إخوةَ الحفل ! يقول لكم أحقر العباد صادرًا عن النصح والرحمـة بكم؛ فاستمعوا وعوا، ونُصحي ليس في أمور الدنيا، وإنما هـو في أمـور الدين والدار الآخرة، وأكبر غايتي أن أقدِّم إليكم بإيجـاز أيهـا الحـضور في الحفـل ! المعتقـدات والأحكـام التـي أعتقـدها معتقـداتٍ دينيـةً

وأحكاماً إلهيةً.

لاتنظروا إليَّ ولكن انظروا فيما أقول

إلا أنـه يـساور ذهنـي أن ينظـر الحـضور في الحفـل إلى أعـمالي ورثاثة هيئتي؛ فلا يرفعوا رأسًا بما أقول لهم قائلين في أنفسهم: «يأمر بالعُرف ولا يأتيه» إلا أنّ أولي العقل يعرفونَ أنَّ عدم حِمْيَـة الطبيـب وقلة وقايته لاتـضرُّ المـريض، كـذلك فـإن لم أعمـل بـما أقـول لهـم وأدعوهم إلى العمل به؛ فما يضرهم؛ فلا يسمعوا لكلمتي.

كما أنَّ كون المنادي كنَّافًـا لايمنـع قبـول أوامـر حُكَّـام الـدنيا ومراسمهم، ولايوجِّهُ أحد من الناس اعتراضًا إلى أنَّ المنادي كنَّاف، وإنـما يخـضع النَّـاس أغنيـاءهم وفقـراءهم وأشرافهـم وسـوقتهم للأوامر الملكية إذا سمعوها من الكنَّاف. فإن كـان الـشأن في طاعـة حكام الدنيا كذلك فـلا تنظـروا إلى رثاثـة هيئتـي في طاعـة الله رب العالمين وأحكم الحاكمين؛ فعلي الأقلِّ أنزلوني منزلـة الكنَّـاف؛ فـلا تنظروا إليَّ ولكن انظرو إلى ما أقدِّم إليكم من أوامر الله وما أخـبركم من عظمته وجلالته.

الوجود وكيفيته

أوَّل شيء نُعْنٰـى به ونعرفه هو وجود ذواتنا، ومن لايعرف أنَّ المرأ يطلع – أولاً وقبل كل شيء – على وجود نفسه، ثم يطلـع عـلى غيره من الأشياء؛ فأَوَّلُ ما يُطّلع عليه ويُعنٰـى بـه مـن الأشـياء هـو وجود أنفسنا، ومن شأن هذا الوجود أنه ليس دائـمًا ولا باقيًـا، فقـد

أتى علينا حين من الدهر أنا كنا في ستار العدم، ثـم أتـى علينـا هـذا الزمان الـذي أصبحنا فيـه موجودين،وسـوف يـأتي علينـا زمـان، ينفصل فيه عنا هذا الوجود شأنَه في السابق، ونـصير نـسيًا منـسيًا، وكم وُجِدُوا قبلنا وأمامنا مـن بنـي آدم عـلى صـفحة الوجـود، ثـم تستَّروا في ستار العدم.

زوال وجود الإنسان يدلُّ على وجود الله تعالى

وجلمة القول أنَّ زمن وجود بني آدم فترة من الـزمن محـدودة بين عدمين، فاتصال الوجود بهم وانفصاله عـنهم وظهـوره علـيهم وغيابه عنهم مما يدلُّ على أنَّ وجودهم – كمثل نـور الأرض (الـذي نُعَبِّر عنه بضوء الشمس أو القمر) أو حرارة المـاء الـساخن – لـيس من صنع ذواتهم بل هو عطاء من غيرهم، إلا أنه كما أنَّ نـور الأرض وحرارة الماء ينتهيان إلى الشمس والنار، فلا يقول أحـد مـن النـاس عن الشمس والنار إنهما يُفِيْضُ عليهما غيرهما بالنور والحرارة في عالم الأسباب؛ بل يرى أن النور في الشمس والحرارة في النـار مـن صـنع ذاتهما؛ ولذلك يلازمانهما كـلَّ الملازمـة. ولا ينفكـانِ عـنهما انفكـاكَ النور والحرارة عن الأرض والماء.

كـذلك فمـن الواجـب بـل الأوجـب أن ينتهـي وجودنـا إلى موجــود ذاتي الــوجــود دائمـــه، وهـذا الموجود هو الذي نـسميه الله تعـالى، ولـذلك نقــول إنَّ وجــوده مــن صنــع ذاتــه لا مـن عطاء غيره.

الأشياء التي تبدو دائمة الوجود، فانية

فلما وجب – نظـرًا إلى عـدم دوام وجودنـا – وجـود الله تعـالى، فلابدَّ أن ندرسَ الأشياء التي تبدو دائمـة الوجـود كـالأرض والـسماء والشمس والقمر والنجوم والهواء والبحار؛ لأنها لم يرها أحـد يـسبقها العدم كما لم يلحقها العدم حتى الآن.

فأقول: إنَّ الأرض والسماء من الأشياء المـذكورة وغيرهـا نراهـا تـشتمل عـلى أمـرين كالأشـياء الفانيـة، الأول: الوجـود، وهـو يعُـمُّ الأشياء كلها، والثاني: الحقيقة، وهي التي يتميَّزُ بها شيء عن آخر.

ثم إنَّ وجود هذه الأشياء وحقيقتهـا لا يتلازمـان كـما يـتلازم عدد الاثنين والزوجية؛ فلا ينفكُّ أحدهما عن الآخـر، فالزوجيـةُ لا تنفك عن عدد الاثنين في الخـارج ولا في الـذهن، كـما لا ينفـك عـدد الاثنين عن الزوجية؛ فما في الأربعة والستة والثمانيـة مـن الزوجيـة هـو بفـضل عـدد الاثنـين، وذلـك أنَّ الزوجيـة عبـارة أن ينقـسم العـدد المفروض إلى عددين متساويين دونما كسر. وذلك – أي انقـسام العـدد إلى عددين متساويين – يتوقف على أن يكون العدد المفروض مجموعـة أعداد الاثنين.

فعدد الاثنين والزوجية متلازمان لاينفك أحدهما عـن الآخـر في الذهن ولا في الخارج، وهذا النـوع مـن الـتلازم لـيس في وجـود الأشياء المذكورة وحقائقها. إنَّ العقل لايُسوِّغ انفكاك عـدد الاثنـين عن الزوجية، وأما انفكاك الوجود عن الحقائق في الأشياء المـذكورة

فقد يُسَوِّغه العقل، ففناء الأرض وصيرورتها معدومة مما يُسَوِّغه العقل ويُجَوِّزه، وأما فناء الوجود نفسه وفناء الذات التي هي للوجود بمثابة الاثنين للزوجية فلا يُسَوِّغه العقل أصلاً. ومن لايعرف أنَّ فناء الوجود وعدمه يعني أن يكون النور – مع كونه نورًا – أسود حالكاً وظلامًا دامسًا، ولما لم يكن الوجود يَصْلُحُ للعدم والفناء فالذات التي هي مصدر الوجود، والوجود من صنع ذاته كيف يكون فانيًا ومعدومًا؟.

وجماع القول أنَّ وجود الأرض والسماء والبحار منفكٌّ عن حقائقها فلا نقول إن وجودها من صنع ذاتها، وإن لم يكن وجودها من صنع ذاتها كان عطاءً من الغير، وكان معدومًا قبل العطاء، فكان لوجودها بداية وبطل قِدَمُها، وإن كانت بداية وجودها تسبق وجود بني آدم، لذلك لم نطلع عليه، فكان فناؤها وعدمها ممكنا؛ لأنه لما كان وجود هذه الأشياء المذكورة كنور الشمس على الأرض وحرارة الماء الساخن كانَ عطاءً من الغير، فكان انفكاكه عنها كنور الأرض وحرارة الماء ممكنًا.

ولما ثبت أنَّ وجود هذه الأشياء عطاء من غيرها كان وجود ذلك الغير الذي أعطاها إياه – كما تقدَّم البحث – من صنع ذاته، ولم ولا ولن ينفك عنه، وكان أزليَّ الوجود وأبديَّه.

توحيد الله تعالى

وبقي أن ندرسَ أنَّ الموجود كهذا الذي وجوده من صنع ذاته

واحد أم متعدد؟ فإن كان الأول فهل يمكن تعدُّده أو يستحيل؟ فأقول: كما أنَّ السواد والبياض والإنسانية والحيوانية صفات لها نطاقات تشمل أشياء: فنطاق البياض يشمل أشياء بيضاء، ونطاق السواد يشمل أشياء سوداء، ونطاق الإنسانية يشمل أفراد الإنسان، ونطاق الحيوانية يشمل أفراد الحيوان، كذلك فنطاق الوجود يشمل الموجودات.

نطاق الوجود أكبر النطاقات وأوسعها

إلا أنَّ نطاق الوجود أوسع نطاقات الصفات وأكبرها، بل ليس فوقه نطاق، أي فكما أنَّ نطاق الإنسانية يفوقه نطاق الحيوانية الذي يشمل الإنسان وغيره من الفرس والإبل والحمار والبقر والشاة وغيرها، فكذلك نطاق الوجود ليس فوقه نطاق يشملُ الموجود وغير الموجود؛ لأنَّ غير الموجود كانَ معدومًا، والمعدوم لايدخل نطاق أيِّ صفة؛ لأنَّ الوصف لا يحصل إلا بعد الوجود.

ولما كانَ نطاق الوجود أوسع النطاقات وأعلاها لزِمَ أن يكون الوجود وصفًا غير محدود؛ إذ لكل محدودٍ يجب أن يكون هو جزءًا لشيء أوسعَ منه أو يسعه نطاق أوسع منه وأكبر. فكل منزلٍ أو حيٍّ أو مدينة أو مديرية أو ولاية شيء محدود، وكون كلٍ منها محدودًا يعني أنه قطعة من الأرض التي هي أكبر منها وأوسع؛ فإن كانت الأرض والسماء والبحار محدودات فذلك يعني أنها يسعها الفضاء الواسع المترامي الأطراف.

فإن قلنا بأنَّ الوجود محدود وجب أن نقولَ بأنه جزء لشيء

أكبر منه، أو يسعه شيءٌ أوسع منه وأكبر. إلا أنه من لايعرف منا أنـه ليس شيء أكبر من الوجود وأوسع، فالأشياء كلها داخلـة في نطـاق الوجود، والوجود ليس بداخلٍ في أي نطاق؛ فوجب أن نعترف بأنَّ الوجود لامحدودٌ.

ليس لله تعالى نِدٌّ في نطاق الوجود ولا خارجه

فلما وعيتم ذلك فاعلموا أنه لايمكـن أن يكـون لله نِـدٌّ في نطـاق الوجود و في خارجه، أما استحالته في نطاق الوجود فذلك بأنَّه لما كـان وجودنا – على ما فيه من الضعف الذي يدل عليه كونه عطاءً من الغـير – لايسمح للغير بالدخول في نطاقه فكيف يَـسْمَحُ وجـود الله تعـالى – على ما فيه من القـوة التـي يـدل عليـه كونـه مـن صـنع ذاتـه – للغـير بالدخول في نطاقه؟

فكما أنه إذا حلَّ وجودُنا الممتد بمكانٍ لايمكن أن يحُلَّ بـه شيء آخر، فإذا حلَّ به شيء لا يبقى فيه وجودنـا، وإنـما يتتقـل إلى مكـان آخر، كما يُقَال عندنا في المثل: «غمد واحـد لايـسع سَـيْفَيْنِ، ورطـل واحد لايسع رطلين حبوبًا» فكذلك بل فوق ذلك تصوروا دخـول ندِّ الله تعالى في نطاق وجوده وسعته فيه؛ لأنَّ نـور الـشمس المنتـشر على الأرض أضعف ضعفًا مما في الشمس من النور، فكذلك وجود المخلوقات أضعف ضعفًا من وجود الله تعالى الذي يلازم ذاته؛ فلما كان وجودنا – على ما فيه من الضعف – لايسمح لغـيره بالـدخول في نطاقه، فكيف يسمح وجود الله تعالى – على مـا فيـه مـن القـوة –

بالدخول في نطاقه؟

وأما استحالة الندِّ وعدم إمكانه خارج نطاق الوجود فالـسبب في ذلـك أنَّ نطـاق الوجـود غـير محـدود، ولـيس فوقـه أي نطـاق؛ فيُحْتَملَ وجود الند فيه. على هذا فوجب الإقرار على كل عاقلٍ بـأنَّ الخالق واحد لاشريك له ولا تعدد فيه.

عقيدة التثليث باطلة

لقد ثبت – مما تقـدَّم مـن البحـث – أنَّ عقيـدة التثليـث التـي يعتقدها النصارى باطلة؛ إذ ذات الله تعالى لا تعدد فيهـا فيـؤدي إلى التثليث، ثم إنَّ الوحدةَ الحقيقيةَ مع التعـدد الحقيقـي في ذاتـه تعـالى أعجب وأغرب.

الدليل الأول، اجتماع الضدَّين

وذلــك لأنَّ الوحــدة والكثــرة أمــران متــضادان، واجــتماع المتضادين مستحيل، فكما أنه لايمكن أن يكـون شيء واحـد أبـيض وأسود أو حارًا و باردًا، أو أن يكون في مكانٍ نهار وليل أو منتـصف الليل ومنتصف النهار أو أن يكون رجل واحد عالمًا وجاهلاً، وكـل ذلك في وقتٍ واحد، فكذلك لايمكـن أن يكـون الله تعـالى واحـدًا وثلاثةً في وقتٍ واحدٍ وموجودًا بالوحدة الحقيقية والكثرة الحقيقية.

الدليل الثاني، الألوهية والاحتياج

قياسًا على ذلك فإن كان اجتماع الأضـداد المـذكورة مـستحيلاً فاجتماع الألوهية والاحتياج مستحيل كـذلك؛ إذ الألوهيـة يلزمهـا

الاستغناء وعدم الاحتياج؛ فالشمس إنما هي معطية الأرَض نورها، فلا تكون محتاجةً إلى الأرض في النور فكيف يحتاج الله تعالى – مع أنه يعطي العالم الوجود – إلى العالم أو ما فيه من الأشياء؛ فكل شيء – سواء كان وصفًا أو موصوفًا – يحتاج إلى الله تعالى في وجوده، فكيف يحتاج الله تعالى إلى شيء مما في العالم، فإذا قلنا باحتياج الله تعالى إلى شيء لزِمَ أن نقول – قبل ذلك – بحاجة ذلك الشيء إلى الله تعالى؛ لأنَّ الاحتياج يعني أن يُعْوِزَ المحتاجَ ما يملكه المحتاج إليه، فلما قلنا باحتياجِ كل شيءٍ إلى الله في كل شيء فكلُّ ما يُحْتَاجُ إليه يملكه الله تعالى، ولا يحتاج هو إلى شيء.

على هذا فمن البديهي كذلك أنَّ المحتاج لايكون له ضغط على المحتاج إليه، وإنما يكون الأمر بالعكس، أي يكون للمحتاج إليه ضغط على المحتاج دائمًا.

الإنسان لن يكون إلهاً

فلِزَمَ مما تقدَّمَ أنه لاحاجة لله إلى شيء ولا ضغَطَ عليه من شيء، ووجوده دائم مستمر ليس له مبدأ ولا منتهىً. فإن كان الأمر كذلك فكيف يمكن القول بأن «عيسى عليه السلام» و «سري راما جندرا» وغيرهما آلهة؛ لأننا نعلم أنَّ لوجودهم مبدأً ومنتهىً و لهم حاجةً إلى الطعام والشراب وعليهم ضغطاً من البول والبراز والمرض والموت؛ فالاعتقاد بألوهيتهم مع احتياجهم إلى هذه الأشياء وضغط تلك الأشياء عليهم بعيد عن العقل والإنصاف

كلَّ البعد.

اللّه جامع بين الوحدانية والصفات الكمالية

ثم أقول: كما أنَّ الله منفرد في ذاته، واحد لاشريك له كذلك جامع للصفات الكمالية كلها، وكيف لايكون ذلك؟ فكل صفة تتبع الموصوف في شأن الوجود، أي لايمكن ثبوت صفة قبل الوجود.

أمّا «الإمكان» و «العدم» فليسا صفتين حقيقةً، وإنما هما سلبان للصفة، أما «العدم» فسلب الوجود فيه ظاهر، وأما «الإمكان» ففيه سلب ضرورة الوجود. وفي محاورات عامة الناس ومحادثاتهم يُسْتَعْمَلُ «الإمكان» قبل الوجود، فعندما يقولون: إنَّ هذا الشيء ممكن، يفهمون أنّه ليس بموجود بالفعل، نعم كما أنَّ الظلَّ – الذي هو عبارة عن عدم النور – يبدو – لخطأٍ في الفهم – شيئًا، كذلك «العدم» و «الإمكان» يبدوان – لخطأٍ في الفهم – صفتين.

مصدر الوجود هو مصدر الصفات

ولما كانت الصفات كلها تحتاج في ثبوتها وحصولها إلى الوجود لزِمَ القولُ بأن الصفات كلها هي صفات الوجود – أي أنها ليست عاريةً للوجود، وإنّما هي للوجود من صنع ذاته، وإلا كما أنّ نور الأرض وحرارة الماء الحار يوجدان بمعزلٍ عن الأرض والماء، كذلك الصفات الوجودية توجد بمعزل عن الوجود – فمصدر

الوجود هو مصدر الصفات؛ فحيثما يُوْجَدُ الوجود توجد الصفات في قليل أو كثير، وإنما يتفاوت الوجود في شأن الصفات تفاوت المرآة والحجر – في قابلية النور وعدم قابليته – فالمرآة أكثر قابليةً للنور من الحجر.

كل ما في الكون من الأشياء يتمتع بقوة الإدراك والشعور

على هذا فوجب أن يتمتع جميع أشياء الكون بقوة الإدراك والشعور في قليل أو كثير. إلاَّ أنَّ هذه الأشياء تَتَفَاوَتُ في قوة الإدراك والشعور، فالإنسان أكثر حظاً من الإدراك من الحيوانات، والحيوانات أكثر من النبات، والنبات أكثر من الجمادات. أو افترضوا الأمر على العكس. ولن تكون هذه الأشياء خاليةً من الإدراك والشعور، وأما عدم علمنا بذلك فلا يستلزم أن تكون هي عاريةً منه.

أسباب الطاعة

على كل، فوجَبَ أن تكون أشياء الكون موصوفةً بالصفات الكمالية، وأن تكونَ هي محتاجةً إلى الله تعالىٰ في وجودها وصفاتها. فبناءً على ذلك وجب أن يكون الله تعالى لجميع ما في الكون مطاعًا لازم الطاعة، وأن تكون طاعته لازمةً على جميع ما في الكون؛ لأنَّ أسباب الطاعة ثلاثة، أو هي تتلخص في اثنين.

وبيان ذلك إنما يُطيع أحد غيره إما أملاً في النفع كطاعة العاملِ سيِّده أملاً في الراتب، وإما خوفًا من الضرر كطاعة أفراد الرعية

وُلاتهم، أوطاعة المظلومِ الظالمَ، وإما حبًّا لصاحبه كطاعة المحِبّ حبيبه.

فلما أمعنا النظر في الأمل والخوف وجدنا مردّهما إلى النفع والضرر الذين يرجعان إلى مالكية الصفات والكمالات، أي إنَّ المالك الأصليّ مختار في إعطاء الصفات والكمالات ومنعها، وأما المستعير فلا اختيار له في المنع؛ ويَتَّضِحُ ذلك في مثال الشمس والأرض، فالشمس تُعْطِي الأرض نورًا وتسلبها إياه، ولا يمكن للأرض أن تمسك النور ولا تعطيها إياه، وما ذلك إلا أن الشمس مالكة النور، والأرض مستعيرته.

خلاصةُ القول أنَّه فيما يبدو أنَّ أسباب الطاعة ثلاثة، وهي الأمل في النفع، والخوف من الضرر، والحُبُّ، وإذا بحثنا وجدنا أنَّ الطاعة لها سببان: أحدهما المالكية، وثانيهما الحبُّ. وإذا زدنا الموضوعَ تنقيحًا وتمحيصًا تَوَصَّلْنا إلى أنَّ الطاعة لها سبب واحد، وهو الحبُّ. فقد يكون حُبُّ المطاع سببًا للطاعة، وقد يكون حبُّ المال والنفس سببًا لها. فطاعة العُشّاق سَبَبُها حبُّ المطاع، وطاعة الموظّف والرعيّة سببها حبُّ المال والنفس.

مهما يكن من شيء، فسبب الطاعة سواء كانَ واحدًا أو اثنين أو ثلاثةً، فهي في الله تعالىٰ أولاً وفي غيره ثانيًا؛ لأنَّ المالكيَّة واختيار النفع والضرر، والمحبوبية تتوقف على الوجود فحيثما كانَ الوجودُ أصلاً كانت المالكية واختيار النفع والضرر والجمال والمحبوبية

أصلاً. وكانت المالكية واختيار النفع والضرر والمحبوبية عطاءً من الله في غيره كالوجود، وإذا كانت الأسباب المذكورة: المالكية، واختيار النفع والضرر، والمحبوبية في المخلوقات أسبابًا للطاعة فلماذا لاتكون هي في الله تعالىٰ أسبابًا للطاعة.

وإذا كانت أسباب الطاعة وبواعثها كلُّها تُوْجَدُ في الله تعالىٰ، بحيث هي أَصِيْلَةٌ في الله وعطاء في غيره كانت طاعتُه واجبةً على العالمين. والطاعة عبارةٌ عن العمل بما يُرْضِيْ الله تعالى، وإن كان العمل بما لايرضاه الله تعالى طاعةً لم يكن بين الطاعة والمعصية من فرقٍ.

الحاجة إلى الرسالة والنبوّة

جملة القول أنَّ الطاعة عبارة عن العمل بما يُرْضِيْ الله تعالى، وأما معرفة الرضا من عدمه فنحن – بني آدم – أولو أجسامٍ ظاهرةٍ لا يعرف أحد منا رضا غيره مالم يُخْبِرْه أو يُشِر أو يكنِ، وأما رضا الله تعالى وعدمه، وهو لم تدركه الأبصار أبدًا فكيف نعرفه مالم يخبرنا.

إلا أنَّ ملوك الدنيا وسلاطينها – مع ما يتمتعون بالمالكية والمحبوبية والنخوة اسميًّا – لايذهبون إلى المنازل والمحلاَّت ليقولوا لأتباعهم: «هذا ما نرضاه فاعملوا به، وهذا ما لا نرضاه فاجتنبوه» وإنّما يأمرون خاصتهم ومُقَرَّبِيْهم بتبليغ أوامرهم وأحكامهم. فالله تعالىٰ وهو الواحد الصمد الذي لايحتاج إلى أحد، والناس يحتاجون

إليه كيف يليق به أن يذهب إلى كل من هبَّ ودَبَّ من النَّاس ليقول: «هذا ما أرضاه فاعملوا به، وهذا ما لا أَرْضَاه فاجتنبوه» فهو كذلك يُطْلِعُ النّاس على رضاه وعدمه عن طريق خاصته ومُقَرَّبيه، وخاصة الله ومقرَّبوه هم الذين نُسَمِّيْهم الرُّسُل والأنبياء.

الشرط الأوّل للنبوّة التقربُ إلى اللّه

ظاهر أنَّ من كانَ مقربًا إلى الله تعالىٰ كان مطيعًا له، ومن عصى الله لايكون مقرّبًا إليه، كذلك من كان رجلاً جميل الصورة وكان إلى جمال صورته أعور، فعَوَرُه يجعل وجهَه قبيحًا. فجملة القول أنّ من كانت فيه خصلة قبيحة لايكون مقرَّبًا إلى الله. على هذا فوجَبَ أن يكون الرسل والأنبياء مطيعين كلَّ الطاعة لايعصون لله أمرًا.

الأنبياء معصومون

على هذا فنقول: إنَّ الأنبياء معصومون، وذلك يعني أنَّ الأنبياء ليس فيهم مادَّة العصيان؛ لأنهم إذا لم تكن فيهم صفة سيئة لاتصدر عنهم أفعال سيِّئة؛ وذلك أنَّ الأفعال الاختيارية تصدر عن الصفات، فمن كان سخيًا يُعْطِيْ ويَهَبُ، ومن كان بخيلاً يجمع الأموال، ومن كان شجاعًا يُبْلِي بلاءً في حومة الوغى، ومن كان جَبَانًا وَلّى دبره.

زَلّة لا معصية

نعم ومن الممكن أن يخطئوا للسهو أو سوء الفهم – كما يخطئ كبار العقلاء أحيانًا، ولا يُنَزَّه عن الخطأ إلا الله العليم الخبير – في

معرفة الرضا من سخطه، فيحسبوا الرضا سَخَطاً والسخط رضًا، ويقارفوا ما يسخطه، أو يعارضوا بسبب عظمة المطاع وحُبّه، وهذا ليسَ معصيةً، وإنما المعصية عبارة عن تعَمُّدِ المعارضة، وإنما السهو والنسيان زلَّة لامعصية؛ فلذا يُقال عند الاعتذار: «نسيت أو أخطأت في الفهم» ولو كان السهو والنسيان معصيةً كان الاعتذار إقرارًا بالمعصية لا اعتذارًا.

الشرطان الأساسيان للنبوة:

كمال العقل ونبل الأخلاق

فلما اتَّضَحَ أنَّ الأفعال تابعة للصفات ونابعة عنها، بقي أن نراعِيَ أمرين: أحدهما الأخلاق – الصفات – و ثانيهما كمال العقل وفرط الذكاء. أما الأخلاق فذلك أنَّ الأفعال – التي وجب إتيانها أو الابتعاد عنها في عبادة الله وطاعته وامتثال أمره – تتوقف على حسن الأخلاق وقبحها؛ مما ظَهَرَ أنَّ الحسن أو القبيح في الحقيقة هو الصفات والأخلاق. وأما كمال العقل وفرط الذكاء فذلك أنَّ الحاجة تمس إلى فهم تطبيق الصفات في مواضعها، حتى لاتصير الأفعال قبيحةً لممارسة الصفات في غير موضعها. فالسخاء صفة محمودة إذا مُوْرِسَتْ للمساكين والمحتاجين. وإذا مُوْرِسَتْ للمغنّيات والراقصات ومُدْمِني الخمور والمدَخِّنِيْن فهي صفة قبيحة؛ وذلك لأنها مُوْرِسَتْ في غير موضعها. جملة القول أنَّ الأفعال وإن كانت تابعةً للصفات، إلا أنَّ معرفة مواضعها لايمكن

إلا برجاحة العقل وفرط الذكاء؛ على هذا فوجَبَ أن يكون الأنبياء راجحي العقول ومحمودي الأخلاق، وإذا كانوا متصفين بالأخلاق الحسنة لزِمَ أن يكونوا متصفين بالحب كذلك؛ لأن حسن الخلق مبناه على الحب. وإذا كانوا أعرف الناس بمواضع ممارسة الصفات – حسن الخلق والحب – وأرجحهم عقولاً كانوا أشدَّ حُبًّا لله، وإذا كانوا أشدّ حُبًّا لله كانوا أكثر خَلْقِ الله طاعةً له وامتثالاً لأوامره؛ فلا يخطِر ببالهم معصية ويكونون معصومين من الذنوب والمعاصي.

المعجزات تتوقف على النبوّة، والنبوّة لاتتوقف عليها

ثم أقول: إنَّ أساس النبوة على رجاحة العقل وحسن الخلق، أما المعجزات فهي تتوقف على النبوة، والنبوة لاتتوقف عليها، أي ليس الأمر أنَّ من ظهرت على يده المعجزات أُعْطِيَ النبوة، وإنما من أعطي النبوة أعطي المعجزات، حتى يؤقِنَ قومه بنبوته؛ لأنّ المعجزات للنبي بمثابة البراهين والوثائق. فلابُدَّ لأهل العقول أن يضعوا نصب أعينهم أولاً رجاحة العقل وحسن الخلق عند مُدَّعِيْ النبوة.

فضل محمد ﷺ عقلاً وخُلُقًا

أما من ناحية العقل والخُلُق فقد وجدنا محمدًا ﷺ أرجح النّاس عقلاً وأوفرهم فهمًا وذكاءً. وأكبر دليلٍ على رجاحة عقله وفرط ذكائه أنه وُلِدَ ونَشَأَ وتَرَعْرَعَ بل عاش طول حياته في بلدٍ بعيدٍ عن الدين والعلم والمعرفة، غارقٍ في مساوئ الجهل والأمّية.

فانظروا ! هذا الرجل الذي كان أميًا وعاشَ طول حياته في بلدٍ بعيدٍ عن العلم والمعرفة قد أتى بدينٍ وشريعةٍ وكتابٍ وآياتٍ بيناتٍ أدهَشَ العالم، وخرَّج جهلاء العرب في علم الإلهيات – التي هي أدق العلوم وأكثرها صعوبةً – وعلم العبادات، وعلم الأخلاق، وعلم السياسات، وعلم المعاملات، وعلم المعاش والمعاد، وجعلهم يبزُّون أرسطو وأفلاطون، وبنوا صرحًا شامخًا للمدنية العربية أُعْجِبَ به حكماء العالم. يدل على علمهم وفضلهم ما تحويه المكتبة الإسلامية من الكتب والمؤلفات التي لايُحْصِيْها العدُّ، والتي لايوجد لها نظير لدى أي أمّة. فمن كان شأن تلاميذه هذا فما ظنُّك بأستاذهم: محمد ﷺ.

أما الخلق فلم يكن محمد ﷺ ملكاً، ولا أميرًا، ولاتاجرًا يملك أموالاً طائلة، ولا إقطاعيًا ذا مزارع واسعة، ولم يرث غِنىً من أبيه، ولا كسب ثراء بيده. وبالرغم من إفلاسه وبؤسه سخّر إخوانه من العرب العتاة الطغاة، وجعلهم بحيث يفدونه بأنفسهم ومهجهم، ولم تكن هذه الحماسة والفداء ليوم أو يومين وإنما عاشوا طول حياتهم متحمسين له؛ ففارقوا أهلهم وذويهم وهَاجروا أوطانهم وأموالهم، وقاتلوا بني جلدتهم فَقَتَلُوهم أو قُتِلُوا بأيديهم. وما هذا كله إلا بفضل خلقه، لا بقوة السيف.

محمد ﷺ نَبيٌّ لا ريب فيه

تلك أخلاق محمد ﷺ، أَتَخَلَّقَ بمثل هذه الأخلاق آدمُ عليه

السلام أم إبراهيم عليه السلام أم موسى عليه السلام أم عيسى عليه السلام؟ وإذا كان من رجاحة العقل وحسن الأخلاق ما قدَّمناه آنفًا؛ وإذا كان من زهده في الدنيا أنّه جَادَ بما ملكته يدُه، وتَخَشَّنَ في مأكله وملبسه ومسكنه، فهل من عاقلٍ يقول: إنَّ موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام من الأنبياء، وإنَّ محمدًا ﷺ ليس منهم. فمحمدٌ ﷺ نبي لا ريب فيه عند أولي الأحلام والنهى.

محمّد ﷺ خاتم النبيين وسيدهم

بعدما لاحظنا الصفات العلمية التي يتمتع بها محمد ﷺ والتي تتجلى فيه جلاءَ النور في عين الشمس وجَبَ أن نُسَلِّمَ أنّه سيد الأنبياء وأفضلهم وخاتمهم.

وبيان هذا الإجمال أنَّ ما في العالم من صفات الأنبياء و الأولياء عطاءٌ من الله كما اتَّضَحَ مما قدمناه آنفاً. كذلك بنو آدم يتمتعون بصفاتٍ وفضائل مختلفة؛ فهذا جميلٌ، وذلك عبقريٌّ، وهذا قويٌّ، وذلك ذكي.

ومثل العباد وخالقهم كمثل التلاميذ وأستاذهم الذي ضَرَبَ القِدْحَ المعلَّى[1] في مختلف العلوم والفنون، فجاء إليه التلاميذ، وأخذ عنه كلُّ واحدٍ منهم فنًّا وتخرَّج عليه فيه؛ فأعمال كلِّ تلميذٍ ومهاراته تَدُلُّ على أنَّ أيَّ فنٍ أخذ هو عن أستاذه، فإن كان نابغًا في العلوم النقلية عُلِمَ أنَّه أخذ عنه العلوم النقلية وتخرَّج عليه فيها، وإن كان نابغًا في العلوم العقلية عُلِمَ أنه أخذ عنه العلوم العقلية وتخرَّج عليه

فيها، وإن كان طبيبًا يداوي المرضى عُلِمَ أنّه أخذ عنه الطِّبَّ وتخرَّج عليه فيه، وإن كان شاعرًا عُلِمَ أنه تَعَلَّم منه الشعر وقرضه، فأحوال التلاميذ تدل على أنّ أيَّ فن أخذوه منه وتخرَّجوا عليه فيه.

ولما كان بنو آدم لاسيما الأنبياء منهم يتمتعون بصفات وفضائل، وهي عطاء من الله وفيض منه، فبأعمال الأنبياء وآثارهم عُلِمَ أنَّ هذا النبي اِستفاد من أي صفة من صفات الله، وهذه الصفة هي المنبع الأصيل لهذا النبي بجانب تمتُّعه بالصفات الأخرى في قليل أو كثير.

محمد ﷺ يستفيد من صفة علم الله تعالى

قد عُلِمَ – مما يَدُلُّ عليه معجزات الأنبياء – أنَّ سيدنا موسى عليه السلام كان يستفيد من صفةٍ، وأنَّ سيدنا عيسى عليه السلام كان يستفيد من صفةٍ أخرى: فسيدنا عيسى عليه السلام كان يستفيد من صفة الإحياء لما يدل عليه ما أُوْتِيَ من معجزة إحياء الموتى وشفاء المرضى، وسيدنا موسى عليه السلام كان يستفيد من صفة التغير والتبديل لما يدل عليه ما أُوْتِيَ من معجزة قلب العصا ثعبانًا، وسيدنا محمد ﷺ كان يستفيد من صفة العلم لما يَدُلُّ عليه ما أوتي من معجزة القرآن وإعجازه العلمي.

صفة العلم أفضل الصفات

يعرفُ النَّاس جميعًا أنَّ العلم صفة تحتاج جميع الصفات إليها في عملها، والعلم لا يحتاج في عمله إلى أي صفة، ومن منّا لايعرف أنَّ

القدرة وغيرهامن الصفات، لا تعمل بدون العلم والإدراك؛ فنحن نريد تناول الطعام فنتناول، فنعلم أولاً أنه طعام لاحجر، ونريد شرب الماء فنشرب، فنعلم أولاً أنه ماء لاخمر، فعِلْمُ الطعامِ طعامًا، والماءِ ماءً لايتوقف على القدرة، فإذا مرَّ بنا طعام أو ماء نعلم أنه طعام أو ماء دونها إرادة واختيار.

فالعلم لايحتاج في ارتباطه بمعلوماته إلى أيّ صفة، وأما الصفات الأخرى فهي تحتاج في ارتباطها بموصوفاتها إلى العلم، فأفضل الصفات المتعلقة بالغير وأعلاها العلم، وليس فوقه صفة، بل إليه تنتهي الصفات المتعلقة بالغير.

النبيُّ الذي يستفيد من صفة العلم هو سيد الأنبياء وخاتمهم

فالنبيُّ الذي يستفيد من صفة العلم كان أفضل الأنبياء مرتبةً وكان سيدهم وأشرفهم، وكانوا تابعين له و محتاجين إليه، وانتهت إليه مراتب الكمال، فكان خاتمهم.

دليل خاتميّة محمد ﷺ

ذلك أنَّ الأنبياء نُوَّابُ الله وخلفاؤه كالحكَّام والوزراء؛ لأنّهم يُبَلِّغون أوامر الله وأحكامه، فكانوا حُكّامًا، فكما أنَّ منصب رئاسة الوزارة هو أعلى المناصب، والمناصب الأخرىٰ أسفل منه، فرئيس الوزراء ينسخ أوامر من تحته من الحكام، ومن تحته من الحكام لاينسخون أوامره؛ وذلك لأنَّ المناصب كلّها تنتهي إلى منصبه فكذلك منصب خاتمية النبوة ليس فوقه منصبٌ والمناصب الأخرى

تحته، فخاتم النبيّين ينسخ أوامر من تحته من الأنبياء، وأما هم فلا ينسخون أوامره.

محمد ﷺ خاتم النبيين وآخرهم زمانًا

على هذا فوجب أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين وآخرهم زمانًا؛ لأنَّ دور الحاكم الأعلى يأتي بعد جميع الحكام، وأمره آخر الأوامر، فالقضيةُ ترفع إلى المحكمة العليا أخيرًا. ومن هنا لم يَدَّعِ أحد من الأنبياء ختم النبوة، وإنما ادعى محمد ﷺ ختم النبوة، كما نُصّ على هذا الموضوع في الكتاب والسنة.

لو ادعى أحد سواه ختم النبوة لادعى سيدنا عيسى عليه السلام، إلا أنّه لم يدَّع ختم النبوة، وإنما بَشَّرَ: «يأتي من بعدي سيدُ العالم» مما عُلِمَ أنّه لم يدّع لنفسه الخاتمية، بل بَشّر بمقدم سيد العالم، فكان خاتم الحكّام وآخرهم. وتكون أوامره آخر الأوامر.

أفضلية محمد ﷺ في المعجزات

فإذا عُلِمَ أنَّ محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم فالآن أقول: إنه ليس يجب أن نعترف بأفضلية محمد ﷺ في الصفات فحسب، بل يجب أن نعترف بأفضليته في المعجزات كذلك، وكيف لا؟ فالمعجزات نفسها آثار تدل على الصفات. فإن كان سيدنا عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وسيدنا موسىٰ عليه السلام يقلب العصا ثعبانًا، فبفضل سيدنا محمد ﷺ عادَ جِذْعٌ يابس من النخيل كائنًا حيًا كالإنسان.

معجزة محمد ﷺ تفوق معجزة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام

بيان هذا الإجمال أنَّ رسول الله ﷺ عندما قامَ خطيبًا يومَ الجمعة أسند ظهره إلى جذعٍ يابسٍ من النخيل منصوبٍ في المسجد، فلما صُنِعَ له المنبر تركه، وقام على المنبر فبكى الجذع بكاءً سمعه الناس، فنزل عن المنبر ووَضَعَ يده عليه واعتنقه، فعاد ساكتًا كالطفل الباكي إذا اعتنقته أمه. وقد شاهد هذا الحادثَ آلاف من النّاس رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم، فلو شاهده واحد أو اثنان لكان في ذلك مظنّة للكذب وسوء الفهم. وتلك معجزة لا تدانيها معجزة سيدنا موسى عليه السلام ومعجزة سيدنا عيسى عليه السلام.

بيان هذا الإجمال أنَّ الجسم الميِّت – قبل أن يطرأ عليه الموت – ذو روحٍ. وأما الجذع المتقدِّم ذكره فلم تكن فيها روح ولا حياة. ثم إنَّ الجسم الإنسانِيّ والحيوانيّ – وإن لم يكن مصدرًا للحياة – قابلٌ للحياة وجاذبٌ لها؛ لذلك نزلت الروح من العالم العلويّ إلى الجسم في العالم المادّي، و لازمته طول الحياة؛ فأنِسَت به وأحبّته، مما يسهل عود الروح إلى الجسم بعد مفارقتها إياه. وكلُّ ذلك لا يوجد في الجذع.

قياسًا على هذا فإن كانت عصا سيدنا موسىٰ عليه السلام قد تحوَّلت بفضله وبركته إلى حية تسعى، فقد ظهرت حركاتها وسكناتها بعد ما انقلبت صورةً وماهيةً، وهذه الصورة والماهية اللتان انقلبت إليهما العصا، مما يتعلق بالحياة علاقةً قويةً، ومعنى

ذلك أنَّ أفعال الحيَّات والثعابين وحركاتها وتقلُّبها وعضُّها ولقفها مما يختص بهذه الصورة والماهية، ومما لايصدر عن الأحياء فضلاً عن النباتات والجمادات. فظهور الروح في هذه الصورة والماهية ليس بأغربَ وأعجبَ من ظهور الروح والحياة في الجذع اليابس.

ثم إنّ عصا سيدنا موسىٰ عليه السلام ظهر منه ما يظهر من الحيَّات والثعابين، ولم يظهر منه ما يظهر من بني آدم وذوي العقول، وأما بكاء الجذع اليابس وصياحه حزنًا على فراق رسول الله ﷺ أو ترك الاتكاء عليه عند الخطبة مما لايظهر إلا من العقلاء الكاملين.

أمثلة من الواقع المشاهد

بيانُ هذا الإجمال أنَّ حبَّ الجمال يحتاج إلى القلب، والعين، والطبيعة ذات الصلاحية التي يميل بها القلب. كذلك حبُّ الكمال يحتاج إلى العقل والإدراك والطبيعة ذات الصلاحية المذكورة، وكلُّ واحدٍ من الأمرين أو كلاهما معًا لايوجد إلا في بني آدم بل في كاملي العقول والطباع منهم. ثم إن الكاملين عقولاً وطباعًا لايتصور منهم كذلك إلا إذا علموا بفضائل المحبوب ومناقبه عِلْمَ اليقين وعينَه بل وحقَّه؛ لأن حصول الحب قبل العلم بفضائله ومناقبه عِلْمَ اليقين صعبٌ وغير ممكن، كما أنَّ اشتهاء «الحلوىٰ» والرغبة فيها قبل ذوق طعمها غير ممكن. فلم نسمع أحدًا اشتهى طعامًا شهيًّا ورغب فيه قبل أن يذوق طعمه الآن، ولا قبله، ولايرى مثله، ولا يخبره عن طعمه أحد.

على كلٍ فاشتهاء الأطعمة اللذيذة والرغبة فيها قبل مذاقها لايتصور وكيف لا؟ فباعث الحب فضيلة أو منقبة؛ لذلك لايحب أحدٌ الأشياءَ القبيحةَ، فإن زعم أحد أنه يكفي في حب الجمال علم عين اليقين، فرؤية حسان الوجوه التي هي مرتبة عين اليقين تكفي لحبهم، ولاحاجة إلى مرتبة أخرى. فالإجابة عن ذلك أنّه قد يحصل حق اليقين بحاسة غير حاسة عين اليقين، كما في الأطعمة يحصل عين اليقين بحاسة العين، وحق اليقين بحاسة اللسان.

مراتب اليقين

وقد تمس الحاجةُ في حصول حق اليقين إلى حاسة من الحواس الظاهرة هي آلة عين اليقين لاغير، بل المرتبتان: عين اليقين وحق اليقين تتعلقان بحاسة واحدة أو حاسة من الحواس الباطنة تصير آلةً لحق اليقين.

وبيان ذلك أنَّ الأطعمة تُشتَهى ويُرغَب فيها بمذاقها لا بالنظر إليها، وأما الجمال فَيُحَبُّ بالنظر إليه لاغير. ففي الجمال يتعلق عين اليقين وحق اليقين بحاسة واحدة، وفي الأطعمة وغيرها يتعلق عين اليقين بالعين، وحق اليقين باللسان؛ لأن الخبر إذا صار مشاهدةً فهو عين اليقين، والخبر بشرط إذعانه علم اليقين، والخبر إذا جُرِّبَ واستُعْمِلَ وانْتُفِعَ بمنافعه فهو حق اليقين.

وجملة القول أنَّ مرتبة حق اليقين ومرتبة عين اليقين تجتمعان في بعض المواضع، مما يُوْهِمُ الاشتباه، ويُخَيَّلُ أنّه ينشأ الحبُّ والرغبة

في مرتبة عين اليقين.

فلما وعيتم هذا فاسمعوا أنه لما كان الحبُّ منشأه يتعلق بمرتبة حق اليقين لزمَ الاعتراف بأن الجذع اليابس قد عَلِمَ بكمالات محمد ﷺ حقّ اليقين، وكما أنه ليسَ فوق مرتبة حق اليقين مرتبة كذلك مرتبة حق اليقين لايحصل عليها كل أحد؛ لأنَّ الروح والكمالات الروحانية أمور خفية، لا يطلع عليها إلا أولو البصيرة والمكاشفة. وأما كون أحد من أولي البصيرة والمكاشفة فمزية لا يرتاب فيها إلا فاقد العقل.

على كلٍ فإن تحوَّلت عصا سيدنا موسى عليه السلام ثعبانًا يجري ويسعى فهذا مما يفعله الثعابين كلها، ومما ليس غريبًا عنها، وأما بكاء الجذع فراقًا لرسول الله ﷺ فمِمّا يدل على كمالات محمد ﷺ التي لايطلع عليها إلا من له حق اليقين بالنسبة إلى الكمالات الروحانية. وحق اليقين لايحصل إلا لأولي البصيرة والمكاشفة، على هذا فمعجزة سيدنا محمد ﷺ تفوق معجزة سيدنا موسى عليه السلام.

الموازنة بين معجزة ضرب سيدنا موسى عليه السلام الحجر ومعجزة نبع الماء من أصابيع سيدنا محمد ﷺ

واسمعوا أيها السادة ! إن انفجر الحجر عيونًا بضرب سيدنا موسى عليه السلام عصاه عليه[1]، فقد نبع الماء من أصابيع سيدنا

(١) لما ضرب موسى عليه السلام بعصاه الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فهذا إن دَلَّ على شيء فإنه يدل على تأثير الحجر أو العصا. وأما تأثير الحجر فذلك أنَّ الحجر جذب الماء كما يجذب المقناطيس الحديد، وأما تأثير العصا فذلك أنّ صدمة ضرب العصا على الحجر انفتحت بها منافذه، كما ينفتح منافذ الثدي بالضغط عليه، فيسيل منه اللبن. (فخرالحسن)

محمد ﷺ، ومعلوم أنَّ انفجار الحجر الموضوع على الأرض عيونًا ليس بأعجب وأغرب من نبع الماء من أصابع من لحم ودم. ومن منَّا لا يعرف أنَّ الأنهار والجداول كلها تنبع إمّا من الجبال أو من الأحجار أو الأرض. وأما نبع الماء من أصابع من لحم ودم ولو قطرة فلم يسمع به أحد.

على أنَّ وضعَ سيدنا محمد ﷺ يدَه المباركة ونبع الماء من أصابعها يدل دلالةً واضحةً على أنَّ يده المباركة منبع البركات، وذلك معجزة جسمه المبارك، وأما ضرب سيدنا موسى عليه السلام بعصاه الحجر ونبع الماء منه فإن كان يدل على شيء فإنما يدل على قدرة الله.

الموازنة بين معجزة انشقاق القمر وبين معجزة سكون الشمس أو عودتها بعد غروبها

وإن كانت الشمس قد سكنت في مكان طويلاً في معجزة سيدنا يوشع عليه السلام أو عادت بعد غروبها لنبي آخر، فذلك لايدل إلا على أنه قد عرضها السكون بدلاً من الحركة، أو صدرت منها الحركة المعكوسة بدلاً من الحركة العادية، ومعلوم أنه لا يصعب ذلك بقدر ما يصعب انشقاق القمر فلقتين؛ لأن الخرق بالنسبة إلى كل جسم ضد لطبيعته، وأما السكون فهو بالنسبة إلى أي جسمٍ ليس مضادًا لطبيعته؛ بل الحركة مضادة لطبيعته؛ لذلك أن خرقَ الجسم يحتاج إلى سبب، كما أن الحركة يحتاج إلى سبب. وأما

السكون فلا يحتاج إلى أي سبب.

المعجزات وإثباتها

فإن اختلج في صدر أحد من الناس شبهة – بعدما سمع هذه المعجزات – وهي أنه كيف ثبت لنا أنَّ المعجزات التي تَقَدَّم ذكرها هي من معجزات محمد ﷺ، وكيف علمنا أنها ظهرت على يده؟

فالإجابة عن هذه أنه كيف عَلِمنَا أنَّ الأنبياء والمرسلين – ماعدا محمدًا ﷺ – ظهرت على أيديهم تلك المعجزات التي يلهج بها أتباعهم؟ فإن كانوا يؤمنون بها لأنها وَرَدَت في التوراة والإنجيل، فالإيمان بمعجزات محمد ﷺ لازم؛ لأنها وردت في القرآن والحديث.

التوراة والإنجيل منقطعا الإسناد،

والقرآن والحديث متصلا الإسناد

لأنّ التوراة والإنجيل ليس لهما إسناد، ولا يُعْلَمُ متى كُتِبَا ومن رواهما. وأما القرآن والحديث فهما متصلا الإسناد منَّا إلى الرسول ﷺ، معلوم عدد رواتهما وأنسابهم وأماكنهم وتراجم حياتهم؛ فمن العجب أن يكون التوراة والإنجيل موثوقًا بهما، وأن لايكون القرآن والحديث موثوقًا بهما، فما أكبر الظلم وما أبعد عن الإنصاف ! فإن كان التوراة والإنجيل موثوقًا بهما فالقرآن والحديث أكثر موثوقيةً.

الإسلام لايُخَطِّئ الديانات الأخرى

ثم أقول: إنّنا لا ندَّعي أنَّ الديانات الأخرى مُزَوَّرةٌ مُخْتَلَقَةٌ افترى بها بنو آدم على الله؛ بل نقول: هناك دِيَانتانِ سماويتان إحداهما اليهودية، وثانيهما المسيحية، إلا أنه دَخَلَهما آراء بني آدم. وتسرَّب إليهما التحريف والتبديل.

الديانة الهندوسية

أما الديانة الهندوسية فلا نقول عنها عن يقينٍ وتأكيدٍ إنّها ديانة سماوية، كما لانقول عنها عن يقينٍ وتأكيدٍ إنها ديانةٌ باطلةٌ ليست من الله؛ لأنه جاء في القرآن: «وَاِنْ مِنْ أُمَّةٍ اِلاَّ خَلاَ فِيْهَا نَذِيْرٌ»(١) فكيف نقول إنَّ الهند التي هي بلدٌ واسع الأكناف طويل الأرجاء لم يُبْعَثْ إليه نبي ولا رسول. فمن الممكن أنَّ الذين يُسَمِّيهم الهندوس «صلحاء» في ديانتهم كانوا أنبياء الله أو أولياءَه في زمانهم.

كما جاء في القرآن: «مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ لم نَقْصُصْ عَلَيْكَ»(٢) فمن الممكن أنّ الأنبياء المبعوثين إلى الهند أن يكونوا ممن لم يقصصهم الله في القرآن.

شبهة والرّد عليها

وهناك شبهة، وهي أنَّ «الصالحين» لدى الهندوس لوكانوا أنبياء الله أو رسله أو أولياءه لما ادّعوا الألوهية، ولم تَصْدُر عنهم

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧٨.

الأفعال القبيحة كالزنا والسرقة وما إليهما. والهندوس يعتقدون أنّه صدَرَ عنهم هذان المنكران، مما يُثْبِتُ أنّ هذين المنكرين قد صدرا عنهم دونما ريب.

ألوهية «كَرِشْنَا» و«راما جندرا» افتراء عليهما

فالرّد على هذه الشبهة أنه من الممكن أنْ نَسَبَ النّاس دعوى الألوهية إلى «كَرِشْنَا» و«راما جندرا» كذبًا وافتراءً كما نَسَبَ النصارى دعوى الألوهية إلى عيسى عليه السلام كذبًا وافتراءً؛ لأن آيات القرآن والإنجيل تَدُلُّ على أنّه كان مُقِرًّا بعبوديته، ومارس طول الحياة من الأعمال مايليق بالعبودية: فصلّى وصامَ وتواضَعَ وأقرَّ بلسانه بعجزه.

على هذا فمن الممكن – كذلك – أنّ الناس اتّهموهما بالزنا والسرقة وهما بريئانِ من هاتين المعصيتين كما اتّهم اليهود سيدنا لوطاً وسيدنا داود عليهما السلام بالزنا وشرب الخمر رَغْمَ اعترافهم بنبوتهم. ونحن نعتقدهما بَرِيْئَيْنِ من هاتين المعصيتين.

سبيل النجاة

خلاصة القول أننا لا ندعي أنَّ الديانات كلّها باطلة ليست سماويةً، وإنما ندعي أنَّ النجاة لايمكن إلا باتباع دين محمد ﷺ، وأنَّ اتباعه يجب على النّاس كلّهم في هذا الزمان.

إزالةُ سوء الفهم عن معنى النسخ

وأما الشبهة بأن الديانات كلها إذن تَعُوْدُ منسوخةً، ويُوْهِم

ذلك أنّ الله قد أخطأ في أحكامه السابقة فاستدركها وأَصْلَحَها وغَيَّرها بأحكامٍ أخرى؛ فالإجابة عنها أنَّ النسخ كلمةٌ عربيةٌ، فَنُخبِرُكم عن معناه.

ما هو النسخ؟ النسخ عبارة عن تبديل الأحكام وتغييرها.

ولما كانَ حُكّام الدنيا لايُغَيِّرون أحكامهم بأخرى إلا إذا وجدوا خطأً في أحكامهم السابقة، فهذا يُثِيْرُ شبهةً. والنسخ هو تغيير الأحكام فحسب، ومثل تغيير أحكام الله بأخرى مثل وصفة «المنضج» و«المسهل» فهما مناسِبَتَان في وقتهما؛ ولذلك تُغَيَّر وصفة «المنضج» بعد انتهاء موعدها بوصفة «المسهل» وهذا التغيير لا يُعْتَبَر خطأً في وصفة المنضج. كذلك الشأن في اليهودية والمسيحية، وهما كانتا مناسبتين في عصريهما، وفي هذا العصر وَجَبَ اتباع دين محمد ﷺ؛ لأنَّ الديانات كلها قد انتهت مواعيدها، وجاء عصر دين محمد ﷺ، فتوقف النجاة من غضب الله وعذاب الآخرة على اتباع دينه.

مثالٌ بديع

إنَّ النائب السابق: «لورد نورث بروك»[1] لايجزئ اتباع

(١) لُوْرْد نَورْث بُرُوك (Lord North brook) حاكم ونائب الملكة البريطانية في الهند، في الفترة ما بين ١٨٧٢ و ١٨٧٦م، وُلِدَ عام ١٨٢٦م، وتعلَّم في الكنيسة المسيحية بأوكسفورد. كان لأسرته علاقات وطيدة بالهند منذ بداية عهد الاستعمار البريطاني في «بنغال» فقد نزل كثير من أعضاء أسرته بالهند تجارًا، ومنهم من استوطنوها. وكان جده مديرًا ذا سلطة ونفوذ في الشركة الهندية الشرقية. مات عام ١٩٠٤م.

أحكامه في هذه الأيام، وإنما يجب اتباع النائب الحالي؛ «لورد ليتن»[1] في أحكامه في هذه الأيام. كذلك لايجزئ اتباع الديانات السابقة في هذا العصر؛ بل يجب اتباع دين محمد ﷺ في هذا العصر. فالتخلص من عقاب الحكومة لايمكن إلا باتباع النائب الحالي في أحكامه. فإن قال مصاب بالجنون: إنَّ النائب السابق هو الآخر كان نائبًا للملكة، فلا يكون معذورًا. كذلك الذين يقولون إنَّ سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام كانا من أنبياء الله ورسله ليسوا بمعذورين.

لو كان الأنبياء السابقون في هذا العصر لاتبعوا محمداً في دينه

بل لو كان النائب السابق في هذا العصر لاتبع أحكام النائب الحالي؛ لذلك لو كان سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام في هذا العصر لا تبعا محمدًا ﷺ في دينه. فإن اعترض أحد – حسب معتقده – على سيدنا محمد ﷺ نَرُدُّ عليه ردًا مُفْحِمًا.

الاعتراضات الأربعة للقس محي الدين

بينما كان الشيخ محمد قاسم يُلْقِي كلمته، إذ قال له القس:

(١) لُوْرْد لِيْتِن (Lord Lytton) حاكم بريطاني في «بنغال» في الفترة ما بين ١٩٢٢ و ١٩٢٧م، تولّى منصب نيابة الملكة البريطانية في الهند لمدةٍ يسيرةٍ. وُلِدَ في «شِمْلَه» عام ١٨٧٦م، عندما كان أبوه «إدْوَارد رُوْبَرْتْ لِيْتن» (Edward Robert Lytton) حاكمًا من «بريطانيا» في الهند. وتعلَّم في كليات «كيمبردج» مات عام ١٩٤٧م.

انتهى دورك؛ فعاد الشيخ إلى مجلسه، وقامَ القس محي الدين البشاوري ووجَّه أربعة اعتراضاتٍ إلى كلمة الشيخ، وكانت اعتراضاتٍ سَخيفةً تَدُلُّ على أنّ القساوسة قد سَلَّموا بما في كلمة الشيخ من الأمور الأساسية اللازمة كما سلَّم بها الهندوس. والأمور الأساسية التي تتضمنها الكلمة ثمانية، وهي كما يلي:

١- إثبات وجود الله تعالى.

٢- توحيده.

٣- كونه مطاعًا لازم الطاعة.

٤- الحاجة إلى النبوة.

٥- صفة النبوة وعلاماته.

٦- نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٧- كون محمد ﷺ خاتم النبيين.

٨- توقف النجاة على اتباعه بعد مبعثه رسولاً.

هذه الأمور الثمانية لم يُوَجِّه القساوسة إلى أيٍّ منها اعتراضًا، إلاَّ أنّ القس محي الدين اعْتَرَضَ على ما تَتَضَمَّنُ كلمة الشيخ من التفاصيل الزائدة؛ فنَدِم وجرَّ الندامة إلى القساوسة. والاعتراضات الأربعة كما يلي:

الاعتراض الأوَّل

كان الاعتراضُ الأول مُوَجَّهًا إلى عصمة الأنبياء، وهو أنَّ آدم عليه السلام أكل القمح – رَغم نهي الله عن أكله – فخالفَ أمر الله،

ومخالفة أمر الله عبارة عن المعصية؛ وأنّ داود زنا بزوجة أوريا – حاشا لله –؛ و أنَّ سليمان عَبَدَ الصنم، فالزِّنا وعبادة الصنم معصيتان، وقد صدرتا عنهما رَغمَ كونهما نبيين؛ فلا يكونان معصومين. وقد جاءت قِصَصُهما في القرآن.

وقد كان رَدَّ الشيخ في كلمته على مثل هذا الاعتراض، إلا أنَّ القس أثار هذا الاعتراض ليستلفت انتباه الحضور في الحفل.

الاعتراض الثاني

وكان الاعتراض الثاني مُوَجَّهًا إلى معنى الآية: «وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيْهَا نَذِيْرٌ»[1] وهو أنّكم ادّعيتم أنَّ كلَّ أمة بُعِثَ إليها رسول أو نبي. فمن بُعِث رسولاً إلى العرب قبل بعثة محمّد؟

كأنَّ القس أراد أن يُشِيرَ إلى أنَّ محمد ﷺ كيف عاش أربعين سنةً من عمره قبل بعثته؟ ولا جَرَم أنه خالف دين الله في أفعاله وأعماله، فلا يكون معصومًا.

الاعتراض الثالث

وهو أنّه كان ينبغي أن تُثْبِتوا معجزات محمد(ﷺ) بالقرآن، وما أثبتموها به.

الاعتراض الرابع

وهو مُوَجَّهٌ إلى أفضلية محمد ﷺ، وذلك أنّ المسلمين يصلون على نبيّهم قائلين: «اللّهمَّ صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

كما صلَّيْتَ على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، إنَّك حميد مجيد» فكلمة «كما صلَّيت» التي تدل على التشبيه، تُشِير إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام أفضل من محمد ﷺ، وذلك أن المشبّه به أفضل من المشبه.

الاعتراضات كثيرة إلا أننا نكتفي بهذه الأربعة منها

بعد أن وجَّهَ هذه الاعتراضات الأربعة قال هو والقس «نولس»: «إنَّ كثيرًا من الاعتراضات قد خطرت ببالنا أثناء كلمة الشيخ، إلا أنها لا تحضرنا الآن لطول كلمته».

وللقراء أن ينظروا في هذه الأربعة حتى يعلموا حقيقتها، فلو كان القس صادقًا فيما يدّعيه – وهو أن الاعتراضات كثيرة إلا أنها لاتحضر الآن لطول كلمة الشيخ – فهذه الاعتراضات الأربعة هي ملاك الاعتراضات وخلاصتها. فهذه الاعتراضات الأربعة التي لصقت بذهنه ليست بذات بال، لو لم يذكرها لكان خيرًا له، ولما جَرَّ الندم.

حقيقة المعصية

بعد أن وجَّه الاعتراضات عاد القس إلى مجلسه، وقام الشيخ وقال: «إنكم لم تفهموا معنى المعصية وحقيقتها. فليست المعصية عبارةً عن مخالفة أمر الله ونهيه فحسب؛ بل لابد أن تكون هذه المخالفة عمدًا لا سهوًا؛ ولذا يقال عند الاعتذار، نَسِيْتُ أو أخطأت في الفهم، ولوكانت المخالفة عن نسيانٍ وسهوٍ معصيةً لكان القول

عند الاعتذار «نسيت» لغوًا.

الأنبياء تصدر عنهم زَلَّة لا معصية

على كلٍ فالمعصية هي مخالفة أمر الله أو نهيه، عمدًا لا سهوًا ونسيانًا، وإن كانت المخالفة عمدًا لم يكن باعثها حُبَّ الله تعالى وعظمته. كما أشرت أثناء كلمتي إلى أنَّ المخالفة صدرت عن الأنبياء سهوًا ونسيانًا، أو بداعٍ من حب الله، لا عمدًا.

وجملة القول أنَّ المعصية هي المخالفة عمدًا والتي لاتكون بداعٍ من الحبِّ والعظمة. وإن كانت المخالفة سهوًا ونسيانًا أو بداعٍ من الحب والعظمة فهي ليست معصية، وإنما هي زلَّة.

آدم عليه السلام ليس عاصيًا

فانطلاقًا من مبادئ الإسلام أكلُ آدم عليه السلام القمحَ لا يُعْتَبَرُ معصيةً؛ لأنه خالف أمر الله سهوًا. فقد جاء في القرآن: «فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ له عَزمًا»[1] فإن صدرت عنه المخالفة عمدًا لم يكن باعِثُها هوى النَّفَس؛ بل كان باعثها حبَّ الله وعظمته. فقد جاء في قِصة آدم في موضعٍ آخر: «مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِه الشَّجَرةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُوْنَا مِنَ الخَالِدِيْنَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِيْنَ فَدَلَّهُمَا بِغُرُوْرٍ»[2]

فمعنى هذه الآية أنَّ آدم وحوّاء خالفا أمر الله رغبةً في كونهما

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠-٢٢.

من الملائكة أو من الخالدين. والملائكة من المقربين إلى جناب الله تعالى، ولا يرغب في التقرب إلى الله تعالى إلا من يُعَظِّم الله ويُحِبِّه؛ فهذه المخالفة التي صدرت عنهما بداعٍ من حبِّ الله وعظمته لاتُعْتَبَر معصيةً.

فخلاصة القول أنَّ أكل آدم عليه السلام القمح ليس معصيةً بل هو زلّة.

الردّ على الاعتراض الأول

ثم قال: وأما قولكم: إنَّ داود زنا – حاشا لله – و إنَّ سليمان عبد الصنم – حاشا لله – وجاء ذكر قصتهما في القرآن، فهذا كذب صريح. ولم يرد ذكر شيء من هذا في القرآن. لو علمتم ما جاء في القرآن لما كنتم مسيحيين.

الرد على الاعتراض الثاني

ثم قال: وأما قولكم: من بُعِثَ رسولاً إلى العرب قبل بعثة محمد. فالإجابة عن ذلك بأني متى قلت إنه لابد من نبي في كل قرنٍ وعصر. لو كنت قلت ذلك لكان اعتراضكم صحيحًا. وإنما قلت: لابدَّ من نبي أو رسولٍ إلى كل أمة. وليس هذا مَحَلاًّ لاعتراضكم.

الرد على الاعتراض الثالث

ثم قال ردًّا على الاعتراض الثالث: ثبوت أمر لايستلزم ذكره في القرآن وأما ذكر أمر في القرآن أو في الرواية الصحيحة فشرط لثبوته. فعند أهل الإسلام أحاديث صحيحة كثيرة جاء فيها ذكر

المعجزات، وهي أحاديث تفوق التوراة والإنجيل قوّةً وصحةً، بيد أنَّ معجزة انشقاق القمر ونبوءة الخلافة قد ورد ذكرهما في القرآن.

ضيق الوقت لايسمح بالرَّد

بينما كان الشيخ يرد على الاعتراضات إذ قال القس: انقضت عشر دقائق، فعاد الشيخ إلى مجلسه، وقال: ضيق الوقت مشكلة، وعندي ردّ على الاعتراض الرابع. ثم قال: وجّهوا الاعتراضات اعتراضًا اعتراضًا، وأنا أرُدُّ عليه؛ لأن الاعتراضات اذا اجتمعت، لايسمح ضيق الوقت بالرد على جميعها. وتوجيه الاعتراض لا يستغرق وقتًا، وأما الرد عليه فيستغرق وقتا طويلاً. فقال القس محي الدين: سوف نفعل كما تقول.

على كلٍ فقد بقيت في قلوب المستمعين حسرة، إلا أنَّ الأمر لم يكن بأيدينا، فعدنا صامتين؛ لأن القساوسة قد كانوا حدَّدوا للمناقشة عشر دقائق، ووافقهم في ذلك علماء الهندوس، وأما محاولة علماء المسلمين في شأن عدم تحديد الوقت فقد فَشِلَتْ تمامًا.

يستدل القس محي الدين بدليلٍ سخيف

ثم جلس الشيخ، وقام القس محي الدين، وقال: لم يرد قصة زنا داود عليه السلام وقصة عبادة سليمان عليه السلام الصنم في القرآن؛ بل وردتا في التوراة والزبور، والقرآن يُصدِّق التوراة والزبور.

ردُّ الشيخ على دليله

جلس القس محي الدين وقام الشيخ وقال: إنَّ القرآن يصدِّق

التوراة والإنجيل، غير أنّه يصدِّق التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام. وأما التوراة والإنجيل اللذان في أيديكم فلا يصدِّقهما القرآن؛ لأنهما قد دخلهما التحريف.

القس محي الدين يستشيط غضبًا

فلما سمع القس ذلك استشاط غضبًا، وقال: إن أثبتم التحريف في التوراة والإنجيل كان قضاءً بين الحق والباطل الآن فقال الشيخ: نعم ! الآن. فقال الشيخ لأبي المنصور: أخبر القس برأي علماء النصارى عن درس الإنجيل بهامشه الذي أريتموني صباح اليوم.

التحريف في الإنجيل

قام الشيخ أبو المنصور وقال: إنَّ التحريفات في الإنجيل كثيرة، غير أنّكم انظروا على سبيل المثال: الدرس السابع، الباب الخامس، رسالة يوحنا، فقد جاء فيه: «ثلاثة تشهد في السماء: الأب والكلام وروح القدس، وهذه الثلاثة واحد» فلما قامت جمعية في «مرزافور» بنقل الإنجيل من اللغة العبرية واليونانية إلى الأردية، وبطباعته عام ١٩٧٠م، وذلك بعناية وإشراف كبار القساوسة، كتبوا على هامش الدرس: «هذه الكلمات لاتُوْجَدُ في نسخةٍ من النسخ القديمة».

القساوسة تطير قلوبهم شعاعًا

فقال القساوسة: لايمكن ذلك. فقال الشيخ محمد قاسم

للشيخ أبي المنصور: هَلُمّ الكتابَ، فأمر الشيخ أبو المنصور بالكتاب، فأحضره خادمه من الخيمة، فأرى الشيخ أبو المنصور القساوسة الدرس المتقدِّم ذكره، فلما رأوه طارت قلوبهم شعاعًا. فأيْقَنَ الحضور بأن غَلَبَ علماء المسلمين.

حذف وإضافة لا تحريف

فقال القس فرارًا من الافتضاح: إنَّ هذا ليس بتحريفٍ وإنما هو حذف وإضافة، وكان الردَّ على قوله أنَّ الحذف والإضافة نوع من أنواع التحريف، إلا أنَّ الشيخ خاف – إذا رَدَّ عليه – من أنَّ القس يضيِّع الوقت في المناقشة العقيمة، فقال: إن لم يكن هذا تحريفًا بل هو حذف وإضافة، فدعوانا ثابتة أيضًا؛ لأن الغرض من إثبات التحريف عند علماء المسلمين هو إثبات كون التوراة والإنجيل غير موثوقٍ بهما، ففيما إذا سُلِّمَ بالحذف والإضافة حصل هذا الغرض بالطريق الأولى.

يقف القس معترضًا

بينما كانوا كذلك إذ وقَفَ القس «جون نولس» وأراد أن يقول شيئًا عن النسخ، فما إن نطق بلفظة أو لفظتين، حتى التفت إلى الشيخ محمد قاسم وقال له: «ماذا قلت في كلمتك أيها الشيخ؟» فقال الشيخ: عجبًا! إذا نسيت الأمر الأصليّ فلماذا وقفت معترضًا؟ فتضاحك معظم الحضور في الاجتماع حتى القساوسة؛ فتحامل القس على نفسه، وقال: إن النسخ لا يكون في الأخبار عند

المسلمين، وإنما يكون في الأحكام، وإن الآيات القرآنية بعضها منسوخة التلاوة والحكم، وبعضها منسوخة الحكم وبعضها منسوخة التلاوة.

المعنى في بطن الشاعر

هكذا قال، وجَلَسَ مُنْهِيًا كلمته كالمعتاد، ولم يدر أحد من الحضور على أيِّ شيءٍ اعترض القس، ولم يفهم إلا القس وفقاً للمثل السائر: «المعنى في بطن الشاعر»[1] أظنُّ أنه – كذلك – لم يفهم معنى كلمته، وإذا تكلفنا وقارنا بين كلمته وكلمة الشيخ توصلنا إلى أن معنى كلمة القس هو أن إخراج الآيات المنسوخة التلاوة يعني اعترافًا بالنقصان في القرآن.

القرآن لا يُقَاسُ بالتوراة والإنجيل

أذكر أنَّ الشيخ ردَّ عليه قائلاً: إذا عَلِمنا يقينًا بما نَزَلَ من القرآن، وما بقي الآن، وماذا كان الحكم أولاً، وما هو الحكم الآن؛ ثم إنّ كلَّ ما وقع من النسخ في القرآن هو بأمر من الله وتصرفه، فمن الظلم العظيم قياس القرآن بالتوراة والإنجيل.

القس «نولس» يعترف بالتحريف في الإنجيل

ثم قال القس «نولس»: إنَّ هذه العبارة زائدة،وما كتبه قَسَاوِسَة «ميرزا فور» على هامش الإنجيل صحيح، فطباعتنا هذه العبارة واعترافنا بزيادتها تدل على صدقنا وأمانتنا، فما كان خَطَأً

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ٢/ ٥٥، ط: دار صادر، بيروت.

خطَّأناه، لا صدَّقناه. فقال الشيخ: منصور علي: متى قلنا: إنكم كاذبون، بل إنكم صادقون، ولكن ديانتكم كاذبة باطلة. وقد ثَبَتَ كذبها وبطلانها باعترافكم.

وقال الشيخ محمد قاسم: إن كانت هذه العبارة زائدة فأخرجوها من الإنجيل، وتوبوا عن عقيدة التثليث. فقال القس «جون طامس: قد أُمِرْنَا بذلك بأسلوب آخر. ثم التفت الشيخ محمد قاسم إلى القس «نولس» وقال له: إذا أَلْقِيَتْ قطرة من البول في كأسٍ مملوءةٍ ماءً، فتنجِّسُ القطرةُ الماءَ كلَّه، والماءُ – رغم كونه أكثر من القطرة بأضعافٍ مضاعفة – لا يُطهِّر القطرةَ.

صاحب الخصال القبيحة يتحايل

لقد ظَفِرَ القس بحيلة إثارةً للصياح والضجيج، فوقَفَ وقال: الإنجيل كلام الله، وهو أَجَلُّ من يُمْزَجَ به نجاسة، فلا تُشَبِّهوه هذا التشبيه القبيح. مع أنَّ صياح القس وضجيجه لم يكن على حق، لأن الشيخ شبَّه الإنجيل بالماء الطاهر، ولم يُشبِّهه بالماء النجس؛ كما شبَّهَ العبارة الزائدة بالقطرة النجسة: قطرة البول، وليس في ذلك إساءة للأدب، بل لو قيل «زيادة عبارة في الإنجيل» سوء أدبٍ لكان صوابًا.

عندي عشرات من الأمثلة

رأى الشيخ – كما قال هو – النقاش في تطبيق المثال غيرَ مُجْدٍ، ومخافة أن ينتهي الوقت قال: أيها القس! إلى متى تتحدث بمثل هذه

الأحاديث؟ فإن كنت تعترض على مثالٍ، أورد عشراتٍ من الأمثلة. وقل ذلك لمن ليس عنده إلا مثال واحدٌ؛ فإن كنت لاتريد أن تسمع هذا المثال، فاسمع مثالاً آخر.

مثال عجيب

إذا كان رجل بارعَ الجمال، لايباريه أحد في الجمال؛ إلا أنه أعور، فنقيصته هذه: العَوَر تُفْسِدُ عليه جماله كلَّه. وتناسبُ أعضائه الأخرى وجمالها لايجعل نقيصتَه فضيلةً.

كذلك إن كان في وثيقة موضعٌ مزوَّر، فصحة باقي الوثيقة لاتجعل الموضع المزوَّر صحيحًا وموثوقًا به، وإنما تعود الوثيقة كلها – لأجل ذلك الموضع المزوَّر – غير موثوقٍ بها.

فمن العجيب أن تكون مثل هذه الوثائق غير موثوق بها في القضايا الدنيوية، ومتاع الدنيا لا يُعْبَأ به عند العقلاء، وتكون موثوقًا بها في القضايا الدينية !!

القاضي

ومن المصادفة أن حضر قاضي محكمة «شاه جهان فور» أثناء كلمة الشيخ، وجلس أمامه. فقال الشيخ مشيرًا إليه للقس: «هذا قاضينا وحكمنا في قضيتنا؛ إذ هو يقضي في قضايا النَّاس ويفصل منازعاتهم» ثم التفت إلى القاضي وقال له: «أيها القاضي إذا عُرِضت عليك وثيقة مزوَّرة، وانكشف تزويرها بإقرار المدعي أو بطريقةٍ أخرى، فما القانونُ الحكوميُّ عنها، وماذا تقضي في القضية؟

فابتسم القاضي وظلَّ صامتًا.

قال بعض النَّاس: إنّه قال القاضي: «الدعوى مضطربةٌ، والوثائقُ مرفوضةٌ، والحكمُ على المدعي والشهود بالحبس أربعة عشر عامًا» أظنُّ أنَّ القاضي قال ذلك لمن حوله من المستمعين، وعندئذٍ سَمِعَ آخرون. وقال بعضهم: قال هذه القولةَ «موتي ميان» أو الشيخ «عبد الحي» غير أنّ كاتب السطور لم يسمع من أحد. على كلٍ فمن قَالَ فقد أَنْصَفَ.

لايجترئ القس إذا كان فيه شيء من الغيرة

نعم سمعت أمرًا آخر، وهو أني حضرت مجلس الشيخ محمد علي صباح ليلة عدت فيها من «تشاندا فور» إلى «شاه جهان فور»، وكانت المناظرة في «تشاند فور» حديث المجلس؛ فإذا رجل حَضَرَ، يبدو أنه من معارف الشيخ، فذكر مما ذكر أنَّ القاضي قال: «إني حضرت بينما كان الشيخ يلقي كلمته على موضوع النبوة، فأعجبت بكلمته أشدَّ الإعجاب، ثمَّ أفحم القس بحيث لايجترئ إذا كان غيورًا. ما كنّا نتعارف، ولا أدري كيف عَرَفنيَ هو، حتى قال لي مرة بعد أخرى: «أيها القاضي! أنت الحكم فينا، أنت تقضي في قضايا الناس، أنت تقضي في قضيتنا اليوم».

لم يقم القس محي الدين مرة أخرى

وجملة القول أنَّ القساوسة لم يحيروا جوابًا على ما قال الشيخ منصور علي و الشيخ محمد قاسم. وقد حان وقت صلاة المغرب،

فَفُضَّ عِقْد الاجتماع، وبعد هاتين المرتين اللتين ذُكِرتا لم يقم القس محي الدين مرةً أخرى. وقد تشجَّعَ مرةً للقيام، إلا أنَّ القساوسة نظروا إليه شزرًا، وكانوا في ذلك على حقٍ؛ لأنه هو الذي جرَّ الندامة إليهم، ولذلك قال الشيخ منصور علي للقساوسة ساخرًا منهم: «لاتدعوه حتى يقوم، فيَفْضَحَكُم».

أما الهندوس فلم ينبس أحد ببنت شفةٍ من بداية الاجتماع إلى نهايته.

ينتهي الاجتماع

على كلٍ فقد انتهى الاجتماع عندما مالت الشمس إلى المغيب، ورجع علماء المسلمين إلى الخيام. كان الشيخ منصور علي والشيخ محمد قاسم جالِسَيْنِ في الخيام بعد المغرب، فقال واحد ممن حضر للشيخ محمد قاسم: قد بقي الردُّ على الاعتراض عن الصلاة على محمد ﷺ وأفضليته الذي أثاره القس محي الدين، فماذا رددت عليه إذا رددتَ؟

الردُّ على الاعتراض الرابع

قال الشيخ: لايُوْرَدُ اعتراض القس محي الدين على أفضلية محمد ﷺ بسبب تشبيهه بإبراهيم عليه السلام في الصلاة؛ لأنَّ كونَ المشبّه به أفضل يجب في التشبيهات المجازية، لا في التشبيهات الحقيقية، بل يجب أن يتساوي المشبّه والمشبّه به في وجه الشبه، ولا يتفاضَلا فيه، وإلا يكون التشبيه خاطِئًا، وفي الصلاة تشبيه حقيقي لامجازي.

شبهة

نعم هناك شبهةٌ، وهي أنه – مع هذا – لا تَثْبُتُ أفضلية محمد ﷺ؛ لأنَّه إن لم يكن المشبّه به أفضل من المشبّه في التشبيه الحقيقي فوَفْقًا لما ذكر وجب أن يكونا متساوِيَيْنِ، إذًا فمحمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام يكونان متَسَاوِيين، لامتفاضلين.

الردُّ الأول

والردّ الأول على هذه الشبهة أنه يجب أن تتساوى النسبة في التشبيه في النسبة، ولا يجب أن يتساوى المنسوب إليه والمنسوب، فمثلاً: نقول: إنَّ للواحد مع الاثنين من النسبة ما لعشرة ملايين مع عشرين مليونًا، فالنسبة فيما بين هذين الأمرين – بحكم التشبيه – متساوية، والمنسوب إليه في هذه النسبة والمنسوب إليه في تلك النسبة لايتساويان، كما لا يتساوى المنسوب في هذه النسبة والمنسوب في تلك النسبة، أي الواحد وعشرة ملايين لايتساويان، كما لايتساوى الاثنان وعشرون مليونًا.

كذلك نقول: «كما تكون الروح تكون الملائكة» أي إن كانت الروح طاهرةً، يقبضها عند الموت ملائكة الرحمة، وإن كانت الروح نجسَةً يقبضها ملائكة العذاب.

ونقول: «كما تكون الروح يكون الجسم» أي إن كانت الروح روحًا إنسانية كان الجسم جسمًا إنسانيًا، وإن كانت الروحُ روحَ خنزيرٍ كان الجسم جسمَ خنزير.

إلا أنّ الناس جميعًا يعلمون: أين أرواح بني آدم من الملائكة؟ وشتان ما بين الأرواح والأجسام، وهذا لايعني أنه تتساوى أرواح بني آدم والملائكة، وأرواح بني آدم وأجسامهم. فهذه الأشياء في هذه الأمثلة لاتتساوى مع صحة التشبيه؛ لأنه يجب تساوي النسبة في التشبيه في النسبة، لاتساوي الأطراف.

قياسًا على هذا فنقول: «كما تكون الشمس يكون نورها» و«كما يكون القمر يكون ضوؤه» و«كما تكون البذرة يكون الغصن والأوراق» و«كما تكون الشجرة تكون الثمرة» وهكذا التشبيه في الصلاة على محمد ﷺ.

بيان هذا الإجمال أنَّ سلاسل النبوة – كسلاسل التصوف – متعددة، فسيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل عليه السلام وسيدنا محمد ﷺ في سلسلةٍ، وقد بَدَأَتْ هذه السلسلة من سيدنا إبراهيم عليه السلام وانتهت بمحمد ﷺ. وسيدنا يعقوب عليه السلام وأولاده وسيدنا موسىٰ عليه السلام في سلسلةٍ، وقد بدأت هذه السلسلة من سيدنا يعقوب عليه السلام وانتهت إلى من بعده.

ففي السلسلة الأولى سيدنا إبراهيم عليه السلام كالبذرة، وسيدنا محمد ﷺ كالشجرة الكاملة المورقة المثمرة. وهكذا في السلسلة الثانية سيدنا يعقوب عليه السلام كالبذرة وسيدنا موسى عليه السلام كالشجرة الكاملة.

فكروا كيف يلزم التساوي مع إمكان صحة التشبيه، وكيف لا

الردّ الثاني

والردّ الثاني هو أنه افترضوا أنَّ رجلاً ذا ماشةٍ[1] من الذهب يريد أن يشتري ألف منٍ[2] من الذهب، فيقول: «أريد أن أشتري كهذا» فهذا التشبيه صحيح، إلا أنه لايعني ذلك أنَّ ماشةً من الذهب وألف منٍ من الذهب يستويان. وأنَّ لصاحب ألف منٍ من الذهب من المكانة مالصاحب ماشةٍ من الذهب، بل المراد من هذا النوع، وإنما يراد بالتشبيه التشبيه في النوع، فيجب التساوي فيه.

إلا أنَّ التساوي في النوع لايقتضي أن تتساوى المراتب الشخصية فلا يَلزم كون صاحب الألف منٍ من الذهب أفضل، وصاحب الماشة أقلَّ مكانةً، كذلك الشأن في الصلاة على إبراهيم عليه السلام، ويراد التشبيه في النوع، فكما أنَّ صاحب الألف منٍ من الذهب أفضل من صاحب الماشة من الذهب، كذلك سيدنا محمد ﷺ أفضل من سيدنا إبراهيم عليه السلام.

القساوسةُ يدعون إلى التغيير في شروط المناظرة

بينما كانوا على ذلك إذ دَخَلَ المنشئ «بيارى لال» على الشيخ محمد قاسم وقال له: قد حَضَرَ القس «إسكات» وغيره من القساوسة وتحدثوا عن شروط المناظرة، فقالوا: إنّه لاينبغي أن يَقِلَّ

(١) الماشة : وزن يُسَاوِي ٦٤ حبَّةً من الأرز.

(٢) المن : وزن يساوي أربعين كيلو جرامًا.

موعد كلمة عن ساعة، وكان رأي المسلمين في هذا الشأن صحيحًا؛ لأنّه ماذا عسى أن يلقي أحد في ساعة؟ لذا بعثني القساوسة بأنّ ما تحدّدونه من ساعة لكلمةٍ واحدةٍ يوافقونكم على هذا التحديد.

قال الشيخ: نحن لانوافق الآن، وقد حاولنا إرضاء القساوسة بتحديد ساعةٍ نحو ثلاث ساعاتٍ، ولكنهم لم يرضوا بذلك أصلاً. وأما الآن فلما قال القس «إسكات»: إنه ينبغي أن تُحَدَّدَ ساعة، قالوا: نحن راضون بتحديد ساعة. نحن لسنا محكومين للقساوسة، وليسوا هم حاكمين للمعرض، فيفعلوا ما يشاؤون، ثم قال الشيخ للمنشئ: إننا لاننكر تحديد ساعةٍ، وإنما نريد أن نبعثهم على الخجل على ما فعلوا من إصرارٍ وعنادٍ.

ثم قال الشيخ للمنشئ: لعلَّ القساوسة الآن يطلبون أن يُدْخَلَ اسم القس «إسكات» ضمن المناظرين والذين تمَّ تعيينُ أسماء خمسة أشخاصٍ لإلقاء الكلمة والمناظرة، فيُغيَّر في شروط المناظرة. فقال المنشئ: إنهم يطلبون ذلك أيضًا. ويقولون: يضُمُّ علماء المسلمين إلى مناظريهم من يشاؤون.

وإن كان كل ذلك وفقًا لما رأى الشيخ؛ لأنَّ الشيخ محمد علي حضرَ بعد المغرب، وأراد الشيخ محمد قاسم والمناظرون من المسلمين أن يُدْخَلَ اسم الشيخ محمد علي ضمن المناظرين لنبوغه العلمي؛ بل نظرًا لمقدم المنشئ «اندرمن» وجَبَ أن يُدْخَلَ اسمه، بل كان قد دُعِيَ الشيخ للمناظرة خاصةً، إلا أنّه مكافأةً لعناد القس

وإصراره وإفحامًا له قال الشيخ محمد قاسم: إنه لايمكن تغيير في شروط المناظرة الآن. ثم قال: أيها المنشئ ! إنّا لا نُصِرُّ على أمرٍ إصرارًا، إلا أننا نظرًا إلى استبداد القس برأيه وعدم قبوله لما قلنا نقول: لايكون تغيير الآن، فأَبْلِغْهم عنّا ذلك. وأما نحن فنفعل ما يقتضيه الوقت.

القساوسة يتحايلون

ثم التفت الشيخ إلى المنشئ وقال له: هل رأيت أيها المنشئ ! كيف يتحايل القساوسة على علماء المسلمين للحيلولة دون التعبير عن أغراضهم وإثبات دعاويهم، فحينًا يقولون: لايجري الحوار أكثر من يومين، وحينًا آخر يقولون: لا يعطى الوقت لإلقاء الكلمة أكثر من أربع دقائق إلى عشرين دقيقةً. فليسأل أحدٌ القساوسة: من يَزِنُ كلمته من ذي قبل، فيُلْقيها في وقت حدَّده الفريقان؟! فمحاورات في الدين كيف يمكنُ خوضها في غضون خمس أو عشر دقائق؟.

وقال الشيخ في بعض الأحيان: إذا كان دين فيه فضيلة أو فضيلتان فيكفيها بضع دقائق. وأما إذا كان دين فيه آلاف من الفضائل فكيف يمكن بيانُها في هذه المدة القصيرة؟.

القساوسة يرتاعون منك

قال المنشئ ردًّا على ما قال الشيخ: إنّا نعلم أنَّ القساوسة يرتاعون منك، وأنهم لاقِبَلَ لهم بك. ثم قال الشيخ: أيها المنشئ ! إنَّ من أكبر شكاوانا إليك أنّا نحن علماء المسلمين والقساوسة ضيوفٌ

عليك، فكان عليك أن تُعَامِلَنا معاملة السوية، إلا أنّك تميل إليهم كلَّ الميل، وتؤيدهم تائيدًا كاملاً.

فرق بين أخلاق علماء المسلمين والقساوسة

فقال المنشئ: نحن خَدَمَتُكم جميعًا، إلا أنه فرق بينكم وبينهم. إنا نخاف أن يسخط القساوسة؛ فيذهبوا. ولا نخاف ذلك منكم. على أنكم تطاوعون كلَّ واحدٍ منّا، وأنهم لايطاوعون أحدًا.

علماء الهندوس يُثْنُون

ثم رجع المنشئ أدراجه. وذهب الشيخ محمد قاسم والشيخ محمد علي إلى «موتي ميان» في خيمته، فقال «موتي ميان» مما قال للشيخ محمد قاسم: كان البانـدت «ديانند سرسْوَتي» والمنشئ «إندرمن» يُثْنِيانِ على خطبكما وعلمكما ثناءً كبيرًا.

ضيافة «موتي ميان» وكرم خلقه

ثم أضاف «موتي ميان» الحضور وصنع لهم عشاءً شهيًّا، فتناولوه، فلما صلّوا العشاء لجأوا إلى مضاجعهم. وقد توافد – بالإضافة إلى أهالي «شاه جهان فور» والقرى المجاورة لها – عدد من الناس من «ديوبند» و «ميروت» و «دهلي» و «خورجه» و«سنبهل» و«مرادآباد» و«رامفور» و «بريلي» و«تلهر» وكانوا جمعًا غفيرًا؛ فلم تسعهم الخيمة التي نَصَبَها «موتي ميان» على طلبٍ من الشيخ محمد قاسم. وكانت أواخر الشتاء بحيث يشتد البرد في ليلة، ويخِفُّ في أخرى. وبالمصادفة قد اشتد البرد في تلك الليلة، مع ريح الصحراء

وشاطئ النهر وساعات الليل. ولم يكن هناك شيء يقيهم البرد إلا ظلال الأشجار والخيام.

لقد أهَمَّ الشيخَ أمرُ المتوافدين، فذهب إلى «موتي ميان» وأخبره بخبرهم وقال له: إنَّ ضيوفك كثيرون، والخيمة التي نصبت لهم لاتسعهم، ولابدَّ أن تأذن الضيوف الذين لم تسعهم الخيمة المنصوبة لهم أن يأخذوا مضاجعهم في خيمتك. أما كرم خلق «موتي ميان» وضيافته فحدِّث عنها ولاحرج! فما إن سمع حتى قال في نبلٍ وكرمٍ: أيها الشيخ! لستَ في حاجة أن تسألني اليومَ، بل الأجدر أن أسئلك أ أنام الليلة! أمهلني ريثما أطعم الضيوف الباقين.

وجملة القول أنّ أُناسًا ناموا في موضعٍ وأناساً آخرين ناموا في موضع آخر ملأ الجفون. فلما أصبح الصباح كان أمر الاجتماع شغلهم الشاغل وهمهم الأكبر. بينما كانوا كذلك إذ اقتربت عقارب الساعة إلى السابعة والنصف.

فعّاليات الاجتماع في اليوم الثاني

ما إن دَقَّتْ عقاربُ الساعة السابعةَ صباحًا حتى حضر المناظرون والمستمعون مجلس المناظرة، وحضره علماء المسلمين على اسم الله وبركته كذلك؛ فلما أخذوا مجالسهم اقترح القس «نولس» على الشيخ محمد قاسم أن يُوَسِّعَ في الموعد المحدَّد للكلمة وقال له: إنّ القس «إسكات» يلقي اليوم كلمته من قبل المسيحيين. فقال له الشيخ محمد قاسم: قد رجوتك بالأمس مرارًا أن تحدِّدَ ساعةً لكل

كلمة، فما رفعتَ بنا رأسًا، فلما رأيتَ اليوم ما فيه نفعك طلبت منّا مارفضته بالأمس. لقد قُطِعَ الأمر، وحُمَّ القضاء، فلا يوسَّعُ في الموعد المحدد للكلمة الآن، ولا يُسْمَحُ القس «إسكات» بإلقاء كلمته، قد ذهب له الوقت مع تعيين الشروط، ولايكون ذلك الآن. وإلا يعني ذلك أنّنا – مع كوننا أعضاءً في المناظرة – ساقطون من حساب المناظرة، وأنتم الأصل وواسطة العقد فيها.

لا أخاف «إسكات» حتى أستاذه

فقال القس «نولس»: إنك تخاف القس «إسكات» فقال الشيخ: أنا لا أخاف – بفضل الله و منّه – القس «إسكات» حتى أستاذه، بل القساوسة كلهم، وإنما أريد أنْ أُشْعِرَكُم بأنَّ من يفي بالعهد ومن ينقضه، وينكصُ على عقبيه؟ أنا راضٍ سواء تحدِّد ساعةً أو ساعتين أو أكثر للكلمة، وتدعو من تشاء لإلقائها، أنا راض كلَّ الرضا، فإن كنت تدخل القس «إسكات» ضمن المناظرين فأنا أضمُّ اسم الشيخ محمد علي ضمن المناظرين كذلك.

أذكر أنّه قد اتَّفَقَ الأطراف الثلاثة على أن تُحَدَّدَ نصفُ ساعةٍ للكلمة، وعشر دقائق للنقاش عليها، واختلفوا كذلك فيمن يقوم خطيبًا أولَّ الأمر، فقال الشيخ مرارًا: إن كنتم تخافون فاسمحوا لي، فأكون أنا أول من يُلْقِيْ كلمته.

القساوسة يحتالون حيلةً أخرى

فلما بُتَّ هذا الأمر وتقرَّر احتال القساوسةُ حيلةً أخرى،

فقالوا: أولُّ ما يبحث فيه هو السؤال الرابع من الأسئلة التي طرحها المنشئ «بيارى لال»، فقال الشيخ محمد قاسم: إن كنتم تريدون البحث في الدين وإثباته فأوَّلُ ما يبحث فيه هو ذات الله تعالى أهي موجودة أم لا؟ فإن كانت موجودةً فواحدة أم متعددة؟ ثم صفاته تعالى، ماهي الصفات الخاصة، أهي موجودة فيه أم لا؟ ثم تجلياته ماهي الأشياء التي تنعكس عليها تجلياته انعكاسَ الشمس على المرآة، وماهي لاتنعكس عليها؟ ثم النبوة والاحتياج إليها، ومن هم أنبياء ومن ليسوا بأنبياء؟ ثم الأحكامُ ماهي تنطبق على الأصول المذكورة وماهي لاتنطبق عليها وماهي صالحة للتسليم وماهي ليست كذلك؟ وإن كان الإنصاف يقتضي أنَّ عَقْلَنَة الأحكام حُسْنِها وقُبْحِها – بعد ثبوت نبوة رجلٍ معينٍ – أمر غير مُجْدٍ بل إساءةٌ للأدب؛ لأنَّ العقل إن كان يستطيع معرفة الحسن من القبيح لم تكن إلى الأنبياء حاجة، وإن كان الأنبياء مطاعين واجبَ الطاعة، نطيع ما يأمرون به كلَّ الطاعة.

على كلٍ فإن كان الغرض هو البحث في الدين وإثباته فاتبعوا الترتيب العقلي الذي قلت لكم بالأمس، وإن لم يكن يُهِمُّكم هذا فاتبعوا الترتيب الذي طرحه المنشئ «بيارى لال»، فنحن علماء المسلمين راضون بكل من الأمرين إن رضي علماء الهندوس.

علماء المسلمين لا يُصِرُّون على شيء

وجملة القول أنَّ علماء المسلمين لم يُصِرُّوا على أن يُفعَلَ شيء أو

لا يُفْعَل. وأما علماء الهندوس والقساوسة فقد أصَرُّوا على الأسئلة وتحديد الموعد. وأما إصرار علماء الهندوس على الأسئلة المذكورة وعدم رضائهم بتوسيع الموعد فذلك أنَّ الأسئلة المذكورة – كما أخبر بعض الثقات – كان قد وضعها الباندت «ديانند»، وإن كان المنشئ «بيارى لال» فيما يبدو مُوَجِّهًا للأسئلة. طبيعي أنَّ من يضع الأسئلة وحَضَر لذلك قبل أسبوعٍ، لايواجه أيَّ صعوبةٍ في الإجابة عنها. وأما من لم يكن عارفًا بالأسئلة ولم يكن لديه كتب فهو يواجه صعوبةً في الإجابة عنها.

لماذا يرفض علماء الهندوس توسيع الموعد؟

يبدو أنَّ علماء الهندوس رفضوا توسيع الموعد بادئَ ذي بدءٍ ظنًّا منهم أنّ الأسئلة معروفة لديهم ومفهومة لهم، فيجيبون عنها بسرعةٍ عاجلةٍ. وأما من لايعرف هذه الأسئلة فهو يواجِهُ صعوبةً في الإجابة عنها. ومن الممكن أنَّ الباندت ظنَّ أنَّ القساوسة لايعرفون الفلسفة والإلٰهيات، وأما المسلمون ففيهم علماء بالفلسفة والإلهيات ليس لهم نظير في العالم، إلا أنَّ من يشتغل منهم بمناظرة القساوسة ومحاورتهم لايعرفون من الفلسفة والإلٰهيات شيئًا. وهؤلاء هم الذين سيحضرون الاجتماع، فيتورطون في هذه الأسئلة، فإن طُرِحَتْ أسئلة من النوع الآخر كان الانتصار على علماء المسلمين والغلبة عليهم أمرًا مستحيلاً. وقد كان انتصار علماء المسلمين في اجتماع السنة الماضية حديث المجالس والنوادي؛ فاحتالوا هذه الحيلة.

وأما إصرار القساوسة على هذه الأسئلة فيبدو أنه كان لأمرين، الأوَّل: أنّ القساوسة ظنّوا – كما ظنّ علماء الهندوس – مما أشار إليه الشيخ محمد قاسم عن هذه الأسئلة أنَّ علماء المسلمين لايعرفونها؛ فليكن أول ما يبحث فيه هو هذه الأسئلة؛ فيفتضح علماء المسلمين وينهزمون وتسوء سمعتهم التي نالوها بالانتصار في اجتماع السنة الماضية.

والثاني: أنَّ القساوسة كانوا يثقون بأنَّ القس «إسكات» له القدح المعلى في علم المعقول، وقد ألَّف كتابًا في المنطق وأجازته الحكومة بخمس مائة روبيةٍ، – سيحضر الاجتماع مساءً، فلينقض هذا اليوم كيف ما اتفق، وهكذا كان، فقد انقضى اليوم الأول في الإصرار والإنكار، ولم تجرِ المناظرة، فلما حضر القس «إسكات» مساءً، ورأى الأسئلة ارْتَاعَ، فطلب أن يبحث أول ما يبحث هو السؤال الرابع.

وأما الموعد المحدد للكلمة فقد أراد القس «نولس» – لما رأى الخطب الطويلة لعلماء المسلمين في اجتماع السنة الماضية – أن يُضيِّق الموعد أشدَّ الضيق، فرضي بصورة أو أخرى بتوسيع الموعد من أربع دقائق إلى عشرين دقيقةً، مع أنه قد قيل له: إنّك ما حدّدت أكثر من خمس عشرة دقيقةً في السنة الماضية رغم إصرار علماء المسلمين على تحديد أكثر من ذلك، فلما ألقيتَ كلمتَكَ وانقضى

الموعد المحدّد اضطررت أن تستأذن الشيخ محمد قاسم المزيد من خمسَ عشرة دقيقةً، وتُعَاود اليوم ما فعلت في السنة الماضية بعد هذه التجربة، ولكنه لم يلتفت إلى ذلك شيئًا.

يحتال القساوسة حيلةً أخرى لهزيمة الخصم

فلما أَيْقَنَ القس «إسكات» بفشله وهزيمته عَمَدَ – رغم تعيين الشروط كلها – إلى تعديلٍ في شرط الموعد من التضييق إلى التوسيع. وأما علماء المسلمين فقد أصروا في اليوم الأول في شأن الشروط والأسئلة؛ لأنَّ الغرض الأصلي من وراء الاجتماع هو البحث في الدين فلا تخيب آمال المستمعين الذين حضروا الاجتماع لاستماعه.

ومن الممكن أنَّ القساوسة عمدوا إلى تعديل في شرط الموعد ظنًا منهم أنَّ ما يسمعه الناس كثيرا يفهمونه بسهولة، ومالا يسمعونه فمن يفهمه؟. كما أنه من الممكن أنَّ القساوسة أرادوا أن يتظاهروا بعجزهم وتواضعهم حتى يتكبر الخصم ويقطع المستمعون رجاءهم منه، فإذا هُزِمَ الخصمُ كان ذلك أدعى إلى الفرح وأجلَبَ للسمعة.

خشيةَ أن يتوهم المستمعون أنَّ علماء المسلمين يلوذون بالفرار وينأون بجانبهم وأن يشهِّر بذلك القساوسةُ وعلماء الهندوس قال الشيخ محمد قاسم: نحن راضون بكلِ شكلٍ من الأشكال، فأرضوا الباندت. إلا أنَّ الباندت لم يرضَ بذلك. فجُعِلَ الأمر إلى المنشئ «بيارى لال»، فمال المنشئ إلى الباندت ووافقه في رأيه قائلاً: عندي أن يبحث في الأسئلة مُرَتَّبَةً.

فاضْطُرَّ القس ورَضِيَ قائلاً: «حضرتُ مساءَ الأمسِ فقال لي إخواني المسيحيون: تُلْقِي كلمتك ردًّا على السؤال الرابع، فدرسته وحضَّرت له» فلما أبيتم إلا أن ألقي كلمتي على موضوع السؤال الأول من الأسئلة فأنا راضٍ اضطرارًا. والسؤال الأول هو أنه متى خَلَقَ الله العالم ومِمَّ خلقه ولماذا؟

كلمة القس إسكات

نهض القس إسكات إلى منصة الخطابة، لِيُلقي كلمته في السؤال الأول فقال: «يسألُ السائل: مِمَّ خَلَقَ الله العالم؟ فأجيب أنَّه خلقه من العدم، خلقه من قدرته، خَلَقَه من إرادته. وأما سؤاله: متى خلقه؟ فهذا أمرغير جدير بالسؤال، وما يُهِمُّ العبد أن يسأل متى خلقه؟ هذا ليس مما يتعلق بالبحث في الدين، ولم يرد في الكتب الدينية. وأما المؤرخون فلهم في ذلك أقوال مختلفة وآراء متضاربة، إلا أنّه من المؤكّد أن للعالم بدايةً. وأما سؤاله لماذا خَلَقَ؟ فأجيب: خَلَقه لأنّه شاءَه، وهو يفعل مايشاء وفَعَّال لمايريد. وخَلْقُ العالم لاينفعه، وإنّما ينفع غيره».

كلمة الشيخ محمد قاسم

هذه خلاصةُ ما قال القس ردًّا على الأسئلة، وإن كانت كلمتُه مُسْهِبَةً طويلةَ النَّفَس استغرقت وقتًا طويلاً، ثمَّ عاد القس إلى كرسيّه، وقام الشيخ محمد قاسم وقَالَ: لم يَفْهَم القس غرض السؤال. لم يكن غرض السائل أن يسأل: أكان العالم معدومًا قبل

وجوده أم لا أو خلق العالم بأيِّ شيءٍ: بقدرته أو بآلة أخرى. لو كان غرضه هذا لكان ردُّه موافقًا للسؤال.

بين السؤال والردّ عليه بون شاسع

وإنما غرض السائل – على ما يبدو – هو أنَّه من أيِّ مادةٍ خَلَقَ العالم، والتفت إلى المنشئ «بيارى لال» و «لاله مكتا برشاد» وغيرهما مستفسرًا إياهم غرض السؤال، فقالوا جميعًا: غرض السؤال هو ما شَرَحْتَه. ثم قال الشيخ: لما لم يفهم القس غرض السؤال كان ردّه عليه لغوًا؛ لأنَّ بين السؤال والرّد عليه بونا شَاسِعًا.

ماهي مادة العالم؟

إنَّ علاقة العالم بخالقه كعلاقة النور بالشمس، فإذا طلعت الشمس أشرق العالم بنورها. وإذا غربت صَحِبَها النور، وأصبحت الأرض والسماء مظلمةً. كذلك تُوجَدُ المخلوقات إذا أراد الله تعالى إيجادها، وتفنى إذا أراد إفناءها. إنَّ الأشعة المنتشرة مادتها نور الشمس الذي ينتشر إلى أبعد الأرجاء، ويُحيط بالأرض والسماء. كذلك وجود المخلوقات مادته وجود الله الذي يُحِيْطُ بالكائنات ويشملها. كما أنَّ الأشعة مادتُها نور الشمس، وتعرضها أشكال مختلفة من مربّعٍ ومثلَّثٍ ومنحرفٍ ودائريٍّ وفقًا لتصميمات فِنَاء المنزل وفتحاته، كذلك وجودُ المخلوقات مصدره وجود الله تعالى، والأشكال المختلفة للمخلوقات التي يتميز بها بعضها عن بعضٍ، يطرأ عليها وفقًا لعلم الله تعالى.

وحدةٌ ومغايرةٌ معًا

فكما أنَّ حركة السفينة وحركة ركَّابها واحـدة، مـع أنَّ الـسفينة تختلف عن ركابها كلَّ الاختلاف، فالسفينة شيء وركابها شيء آخر، كذلك وجود الله و وجود العالم واحدٌ، مع أنَّ الله يختلف عـن العـالم كلَّ الاختلاف.

الوجود نوعان: حقيقي ومجازي

كما أنَّ النور المذكور والحركة المذكورة لهـما انـتماءآن: انـتماء إلى الـشمس والـسفينة انـتماءً أوليًّـا ذاتيًّـا حقيقيًّـا، وانـتماء إلى الأرض وركاب السفينة انتماءً ثانويًّا عرضيًّا مجازيًّا، كذلك للوجود انـتماءآن: انتماء إلى الله تعالى انتماءً أوليًّا ذاتيًّـا حقيقيًّـا، وانـتماء إلى العـالم انـتماءً ثانويًّا عرضيًّا مجازيًّا.

وجود العالم لم يصدر عن ذات الله وإنما صدر بفضله

كما أنَّ أشكال النّور من مربعٍ ومـدوَّرٍ وغيرهمـا لم تـصدر عـن الشمس، وليست هي عطاءً وفيضًا وصفةً لها، كما صدر النور عنها؛ بل نستطيع أن نقول: إنّها – الأشكال – صـدرت وظهـرت بفـضل الشمس، ولو لم تطلع الشمس لـما ظهـرت هـذه الأشـكال، كـذلك حقائق المخلوقـات أي أشـكالها المميّـزة لهـا، سـواء كانـت ظـاهرةً كحقائق الأجسام أو باطنةً كحقائق الأرواح لم تـصدر عـن ذات الله تعالى ولم يخرج عنها، فلا تكون فيضًا وعطاء منه وصفة له، كما صدر الوجود عن ذات الله؛ بل نقول: إنَّ هذه الحقائق كلها ظهرت بفضل

ذات الله تعالى، لو لم يُرِدْ إيجادها لما ظهر هذا العالم مـن سـتار العـدم إلى مسرح الوجود.

حُسْنُ وقُبْحُ المخلوقات لايستلزم أن يكون الخالق حَسَنًا أو قبيحًا

إذًا فحُسْنُ وقُبْحُ المخلوقات لايستلزم أن يكون الخـالق حـسنًا أو قبيحًا، وإنما تكون تلك الأشكال حـسنةً أو قبيحـةً، مثلـه كمثـل قرطاسٍ يكتب عليه خطاط ماهر خطوطاً حسنةً وقبيحـةَ، وطبيعـي أنّ الخطوط إنما تكون حسنةً أو قبيحةً، ولا يستلزم حـسنها وقبحهـا أن يكون الخطاط الماهر حسنًا أوقبيحًا. كذلك حسن وقبح الحقـائق الممكنة لايؤدي إلى حسن وقبح الخالق، وإنما يقتصر الحسن والقـبح على تلك الحقائق.

وبالجملة أنّ الحقائق الممكنـة تختلـف عـن الله تعـالى، ويختلـف بعضها عن بعضٍ كذلك. وأما مادة الحقائق المـذكورة فهـي الوجـود الـشامل الـذي لـه نِـسْبَةٌ إلى ذات الله تعـالى نِـسْبَةَ الأشـعة إلى ذات الشمس. فالمخلوقات يحتاج في وجودها إلى الله تعالى احتياجَ الأشـعة في وجودها إلى ذات الشمس أو احتياجَ حرارة الماء الحار في وجودهـا إلى حرارة النار. ففناء المخلوقات وإتيانهـا وذهابهـا إنـما يـدل عـلى أنَّ وجودها ليس من صنع ذاتها، وإنما هو مستعار وفيض لمن لـه وجـود من صنع ذاته وملازِمٌ له ملازمةَ الحرارة للنار والنورِ للشمس.

سؤال عقيم

أما السؤال: متى خلق الله تعالى العـالم؟ فأنـا أوافـق القـس في

الإجابة عنه، ذلك أنَّ هذا السؤال – من الوجهة الدينية – ليس جديرًا بالاستفهام، وإنما الجدير بالاستفهام: لماذا خلق العالم؟، فالسؤال عن الخبز: متى خُبِزَ؟ أمر سخيف باطل. وإنما ينبغي أن يُسْأل لماذا يُخْبَزُ الخبز؟ فالغرض من وراء خلق العالم الذي يتضمَّنُ السؤال الأول هو صالح للاستفهام والإجابة.

الغرض من وراء خلق العالم

أقول أولاً: ما قال القس عن غرض خلق العالم من أنَّ الله تعالى شاءَ خلْقَ العالَمِ فخلقه، أمر – بعد تنقيحه – لا يُسَلِّم به عاقل؛ لأنّ ذلك يعني أنّ خلق العالم ليس وراءه من غرضٍ وحكمةٍ، وإنما خلقه، لأنّه شاءه، فإن كان الأمر كذلك، فقد سوّى القس بين أفعال الله وأفعال الأطفال، فمن شأن الأطفال أنّهم يفعلون مايشاؤون: يجلسون إذا شاؤوا ويقومون إذا شاؤوا، ويَثِبون إذا شاؤوا، ويسكتون إذا شاؤوا، ويأكلون إذا شاؤوا، وينامون إذا شاؤو، وهكذا، فشتّان مابين أفعال الله تعالى وأفعال العباد، فإن لم تَشْتَمِلْ أفعاله تعالى على غرضٍ و حكمةٍ فمن تشتمل أفعاله عليهما؟! فمِنْ شأن عباده أنّهم لايمارسون فعلاً إلا إذا تخيَّلوا نتيجته واستحضروا حكمته ومصلحته، فكيف لايكون شأن الله تعالى كذلك؟.

الغرض المنشود له نوعان

نعم ! إنَّ الغرض المنشود له نوعان: الأوَّل أنَّ الفاعل يحتاج إلى نتيجة فعله وغرضه المنشود، كالمريض يستكتب وصفةً من

الطبيب، فهو يحتاج إليها. والثاني أنّ الفاعل لايحتاج إلى نتيجة فعله، وإنما يحتاج إليه غيره، كالطبيب يكتب وصفةً للمريض، فهو – من حيث أنه طبيب – لايحتاج إليها، وإنما يمارِسُها تحقيقًا لحاجة غيره.

الغرض من وراء خلق العالم هو العبادة والعبودية

لن يكون الغرض المنشود من وراء خلق العالم بأن يحتاج إليه الله تعالى؛ لأنه إن كان محتاجًا إليه لايكون إلــٰـهًا؛ بل الألوهية تستلزم أن تكون الموجودات كلها محتاجةً إليه في وجودها، كما أثبتُّ بالأمس أنَّ أفعاله تعالى تشتمل على النوع الثاني من الغرض والحكمة، فمعنى خلق العالم أنه أعطى العالم الوجود وما يَلزَمُ الوجودَ من الصفات.

نعم! إنّ أفعاله التي تشتمل على النوع الثاني من الغرض والحكمة، لايكون غرضه من ورائها إلا الإعزاز والتكريم لنفسه؛ لأن إعطاءَ الوجود ومايلزمه من الصفات – الذي هو خلاصة الإيجاد – لابد أن يكون له من غرضٍ، وما عسى أن يكون الغرض من ورائه؟ فالعبادة والعبودية والعجز والتضرع ينبغي أن تكون هي الغرض المنشود لله تعالى.

الله تعالى يتصف بالصفات كلها إلا العبودية

فإذا تأمّلنا في صفات الله تعالى وجدنا أنه يتصف بالصفات كلها، فإن كان أحد عالماً فالله تعالى عليم، وإن كان أحد قادرًا فهو قدير، فما في المخلوقات من علمٍ وقدرةٍ هو انعكاسٌ من علم الله

وقدرته. فكما أنَّ المرآة فيها انعكاس من نورالشمس، وإلا ليس في المرآة شيء من النور، كذلك ما في المخلوقات من علم وقدرة هو انعكاس من علم الله وقدرته، وإلا ليس في الممكنات من علم وقدرة.

على هذا فهذا النوع من الصفات لن تكون غرضا مقصودًا لله تعالى، لأنها مهداة منه، وإنما يكون غرضه المقصود ما ينقصه ويُعْوِزُه تعالى، وتلك هي صفة العبودية والعجز والتضرع، وهذه هي الصفة التي لايتصف بها الله تعالى.

أما خَلْقُ العالم كلِّه لهذا الغرض: الطاعة والعبادة، فذلك بأنَّ العالم كله خُلِقَ للإنسان، والإنسان خُلِقَ للطاعة والعبادة، إذًا فالإنسان وباقي العالم – مثلاً – كالعلف والحبوب للفرس، والفرس للركوب، إذاً فالعلف والحبوب كذلك لغرض الركوب. وهكذا الخبز للأكل، والحطب لإعداده، فالحطب كذلك لغرض الخبز، ولذلك يُعَدُّ الحطب من نفقات الطعام، فيُقال – بعد حساب الحطب – أنَّ الطعام كلَّفَ كذا مبلغًا من المال.

وجود الكائنات لمصلحة الإنسان

جملة القول أنَّ ما كان مقوِّمًا لشيء يُعَدُّ في حسابه، فإذا نظرنا فيما بين الأرض والسماء من أشياء وجدناها لمصلحة الإنسان ومنفعته، والإنسان لايصلح لهذه الأشياء ولا ينفعها، فلولا الأرض فعلامَ استقَرَّ الإنسان ونامَ ومشى؟ وأين زَرَعَ، وبنى منزله وغرس

أشجاره؟ فلولا الأرض لاستحالَ عيشُ الإنسان، ولولا الإنسان لما ضَرَّ ذلك من الأرض شيئًا.

هكذا لولا الماء فماذا شرب؟ ولولم يشرب فكيف حَيِيَ؟ وبِمَ أعدَّ الطعام وغَسَلَ الثياب، واغْتَسل؟ فلولا الماء لصعُبَ عيش الإنسان، ولولا الإنسان لما ضَرَّ ذلك من الماء شيئًا. ولولا الهواء فكيف تَنَفَّسَ الإنسان؟ وكيف نما الزرع وكيف هبَّت النسمات السَّارة؟ فلولا الهواء لكنّا أمواتًا، ولولا نا لما ضرّ ذلك من الهواء شيئًا.

وهكذا لولا الشمس والقمر والنجوم لاستحال نظر الإنسان ومشيه، ولولا الإنسان لما ضَرَّ ذلك من الشمس والقمر والنجوم شيئًا. ولولا السماء ودورانها لما ظَلَّلَ شيء ولما تعاقب الصيف والشتاء، ولولا الإنسان لما ضَرَّ عدمه من السماء ودورانها شيئًا.

الإنسان ليس عبثًا

على كلٍ فإذا نظرنا إلى الإنسان وجدناه لاينفع شيئًا مما بين السماء والأرض. وكل ما بين السماء والأرض من أشياء يصلح للإنسان وينفعه. إذا فإن لم يكن الإنسان لمصلحة الله لم يكن شيء أشدَّ عبثا وضياعًا من الإنسان. إلا أنّ الإنسان – على ما يتمتع به من العقل والمزايا والحسن والجمال – كيف يكون عبثًا وضائعًا؟ فإن كان الإنسان – على أفضليته المعروفة والمعترف بها – عاطلاً ضائعًا فاعلموا أنه ليس شيء أشدّ قبحا من الإنسان. على هذا فلزم أن

نقول: إنه خُلِقَ لمصلحة الله تعالى. فهو – لما يتمتع به من مزايا وفضائل – يكون لمصلحةٍ عظيمةٍ وغرضٍ عظيمٍ.

العبادة والعجز والتضرع

ومن الطبيعي أنَّ الله تعالى ليس محتاجًا إلى شيء في أمرٍ، فكيف يكون محتاجًا إلى الإنسان الذي احتياجُه إلى ما بين الأرض والسماء من أشياء أوضحُ وأظهرُ. فلَزِمَ القول بأنه خُلِقَ للعبادة والعجز والتضرع؛ لأنَّ العبادة والعجز والتضرع هي التي ليست عند الله تعالى.

ثم إنَّ العبادة والعجز والتضرع بالنسبة إلى الله تعالى – وفقًا لما تقدَّم من البحث – كتواضع المريض وتَذَلُّلِه أمام الطبيب. فكما أنَّ الطبيب لأجل تواضع المريض وتذلُّلِه يرحمه ويُشفِقُ عليه ويداويه، كذلك الله لأجل عبادة الإنسان إياه وعجزه وتضرُّعه له يرحمه ويُشْفِقُ عليه.

غاية خلق العالم كله عبادة

على كلٍ فقد خُلِقَ العالم كله للإنسان، وخُلِقَ الإنسان للعبادة، فكما أنَّ الفرس للركوب، والعلف والحبوب للفرس، فيُعَدُّ العلف والحبوب ضمن الركوب، فكذلك الإنسان خُلِق للعبادة، وخُلِق العالم كله للإنسان، فيوضع العالم كله في عداد العبادة.

هكذا كان الشيخ محمد قاسم يلقي كلمته حتى انتهى الموعد المحدّد، فجلس، ووقَفَ البانـدت «ديانند» [1] لإلقاء كلمته، وقد

(١) هو البانـدت «سوامي ديا نند سرسوتي» أحد رجال الفكر في الديانة الهندوسية المشهورين، ←

سمعت المنشئ «بيارى لال» والمنشئ «مكتابرشاد» يُثْنِيانِ على كلمة الشيخ قائلين: «هذه هي الإجابة».

يلقي البانـدت ديانند محاضرةً بلغةٍ تشوبها كلمات وجمل من اللغة السنسكرتية

على كلٍ فقد عاد الشيخ محمد قاسم إلى مجلسه، وقام البانـدت ديانند إلى منصة الخطابة، وأخذ يلقي محاضرته بلغة تشوبها كلمات وجمل من اللغة السنسكرتية إلا حروف العطف؛ فلم يفهمها إلا بضعة أشخاصٍ من حضور الاجتماع.

مادة العالم قديمةٌ

ومما فُهِمَ من محاضرته أنّ الفخّاريَّ – مثلاً – يصنع أواني فخارية، فلابُدَّ له من الطين، فلولم يكن الطين لما أمكن له صُنْعها. كذلك خَلَقَ الله العالم، فلابُدَّ له من مادة سابقة، ولو كانت المادة مخلوقةً فهذا يعني أنه خلق العالم من غير مادة.

وبالجملة أنّ مادة العالم قديمة، ووجود العالم منذ الأزل، ويَسْتَمِرُّ على هذا الشأن أبدًا. وما قاله القس من أنَّ العالم خُلِقَ من العدم غير معقول؛ لأنَّ العدمَ ليس بشيء، ولايُخْلَقُ منه شيء.

→ وصاحب المؤلفات المشهورة، ومؤسس حركة «آريه سماج» التي كان أهم أهدافها دعوة من أسلم من الهندوس إلى الارتداد عن الإسلام واعتناق الديانة الهندوسية. جرت مناظرات ومحاورات بينه وبين العديد من علماء المسلمين لاسيما الشيخ محمد قاسم النانوتوي. وُلِدَ في قرية «موروي» من أعمال «أحمد آباد» بولاية «غوجرات» في الهند، عام ١٨٢٤م، واشتهر بـ«سوامي ديا نند» ترك عبادة الأصنام، وقرأ «الفيدا» أحد الكتب المقدسة لدى الهندوس على «سوامي درجا نند». أسس حركة «آريه سماج» عام ١٨٧٤م، وقضى ما بقي من حياته في ترقيتها وتطويرها. مات في ٣٠/ أكتوبر عام ١٨٨٣م (قاسم العلوم للكاندهلوي ص:٢١١)

لم يُفْهَمْ من محاضرته سوى هـذين الأمـرين، ولم يُبَـيِّن غـرض خلق العالم في محاضرته، وقد عُلِمَ مما قال النّاس: إنّـه ادعـى تناسـخ الأرواح، ولا يُدْرى بمَ احتجَّ عليه؟

صُعوبةُ اللغة

جملة القول أنّـه كـان لايُفْهَـمُ معنـى محاضرتـه للغتـه المشوبة بكلمات وجمل من اللغة السنسكرتية، فقـال الـشيخ محمـد قاسـم – أثناء إلقاء محاضرته – للمنشئ «إندرمن»: إن كنت لاتريـد أن تُلْقِـي كلمتك فقم وتَرْجَمْ مايقوله الباندت حتى نفهمه، وإلا ليس لنـا إلى القبول والاعتراض من سبيلٍ، فقال المنـشئ: «إننـي لم أتعـوَّد إلقـاء المحاضرة، ومن تعَوَّدوه فهم يفعلونه، فلي العذر».

القس «إسكات»

على كلٍ فقد انتهى البانـدت مـن محاضرتـه. ووفقًـا للبرنـامج المرسوم قامَ القس «إسكات» وأخذ يلقـي كلمتـه، رغـم أن الموعـد كان موعد النقاش.

فلما انتهى القس «إسكات» من كلمته، وجاء دور علماء المسلمين، قال الشيخ محمـد قاسم للـشيخ محمـد عـلي: «إني لم أفهـم مـن محـاضرة الباندت شيئًا، فينبغي أن تَتَجَشَّم لإلقاء الكلمة، ولو فهمت محاضرته لما جَشَّمْتك، فقال الشيخ محمد عـلي: «إني لم أفهـم محاضرتـه كـلَّ الفهـم». فقال الشيخ محمد قاسم: «و أنا لم أفهم من محاضرته شيئًا».

يقوم الشيخ محمد علي بالرَّد على محاضرة الباندت

قام الشيخ محمد علي وقال: يبدو من محـاضرة البانـدت أنَّ العـالم أزليٌّ و مادته قديمة، ولم يخلق العالمَ أحـدٌ، مما يلـزم أنَّ المـادة «واجـب الوجود» فلزم «واجبان للوجود» ولم يبق التوحيد. إذًا فلم تَبْقَ الحاجـة إلى الاعتراف بوجود الله تعالى.

من الواضح أنَّ العالم مركَّـبٌ، والتركيـب يـستلزم الحـدوث؛ فالقولُ بقدم العالم باطلٌ بداهةً.

يُفَسِّر الباندت محاضرته

ثم قـام البانـدت وأعـاد – كما روى أولـو الفهـم والعقـل – اعتراضه على القس، ثم رَدَّ عـلى مـا وُجِّـهَ إليـه مـن الاعـتراض بـما خلاصته: محاضرتي لم يفهمها الخصوم كـلَّ الفهـم. إنـا نقـول بقـدم مادة العالم، لابقدم العالم، وقد خلق الله العالم بهذه المـادة، ولمـا كـان الخالق والموجد هو الله تعالى، مسَّت الحاجة إلى الاعتراف بوجود الله تعالى؛ لأنَّ المادة لم يتكَوَّن منها العالم بشكل آليٍّ؛ بل الموجـد والخـالق هو الله تعالى.

تلك خلاصة ما قال الباندت، وما إن قال حتى انقضت عـشر الدقائق المحـدّدة، فجلـس، وقـام أحـد القـساوسة وفقًـا للترتيـب المَسَبَّق، ولا أذكر ماذا قال في كلمته.

يرد الشيخ محمد قاسم النانوتوي على الباندت ديانند

في هذه الأثناء وقف الشيخ محمد قاسم وقال: إن كان الوجـود

المذكور الذي سميتُه مادة العالم يسميه البانـدت مـادةً قديمـةً فـنِعْمَ رأيه، فهو يوافقنا في رأينا. وإن كان الوجود شيئًا آخر غير صفة مـن صفات الله وانعكاسٍ من انعكاساته، وكان أمـرًا مـستقلاً عـن ذات الله ومنفصلاً عنها؛ فإن لم يكن مخلوقًا بل كان موجودًا بنفـسه، كـانَ إلـٰهًا؛ لأنَّ الإله هو مايكون موجودًا بنفـسه، ولايحتـاج في وجـوده إلى خالقٍ. وإن كان الوجود أمرًا مخلوقًا، فلايكـون قـديمًا؛ لأن مـالم يكن موجـودًا بنفـسه؛ بـل كـان محتاجًـا إلى شيء آخـر في وجـوده، لايكون وجوده من صنع ذاته، بل كان عطاءً من غـيره. وكـان مثلـه كمثل الأرض التي لاتشرق بنفـسها، وإنـما تـشرق بنـور الـشمس، فيكون نور الأرض عطاءً من نور الشمس، لامن صـنع ذاتهـا كنـور الشمس.

فإن كان الوجود المذكور – المـادة المـذكورة – مخلوقًـا فمعنـى ذلك أنه أوجده الخالق، وليس موجودًا بذاته؛ بل عطاءً من الخـالق، ولما كان عطاء الوجود – كعطاء نور الشمس – لايتصور إلا أن يأتي الوجود من جانبٍ ويقع على الموجود وقُوْعَ الـشمس عـلى الأرض، فوجَبَ أن نعتبر حركةً مبدؤها في جانبٍ، ومنتهاها في جانبٍ آخـر. وما يحـصل بالحركـة يكـون فيـه العـدم أولاً، والحركـة ثانيًـا شـأنَ الحركات في الأمكنة. فمثلاً: أن المكان كـان شـاغرًا قبـل أن يـشغله شخص، فلما تحرّك إليه شغله وتمكَّن فيه؛ فلزم أن نقول: إنَّ المـادة لم تكن موجودةً أولاً، ثم وُجِـدَتْ بفـضل العطـاء. وطبيعـي أنَّ هـذا

يخالف القدم، بل هذا هو الحدوث.

كلُّ انقلاب يستلزم حركةً

على أنَّ كل انقلابٍ يستلزم حركـةً؛ فانقلابـات طلـوع الـشمس وغروبها تؤكِّد لنا أنَّ الشمس أو الأرض متحركة، وإلا حركة الشمس أو الأرض – بغض النظر عن الانقلاب المذكور – لم تُشَاهَد بـالعين ولم تُدْرَكْ بطريقٍ آخر. ولـذلك اختلـف علـماء الهيئـة أيهـما – الـشمس أو الأرض – متحركة. لوكانت الحركة مُدْرَكـةً ومحسوسةً لمـا وقـع هـذا الاختلاف ولاتفقوا على حركة أحدهما.

كما يكون الانقلاب تكون الحركة

فالانقلاب يتوقف على الحركة، ولايُتَصَوَّر بدونها، وإلا لما أكَّدَ لنا الانقلاب الحركة. على أنَّ كل انقلاب يستلزم حركةً مجانِسَةً لـه، ويتبادر الذهن إليها، ولما كانت انقلابات طلـوع الـشمس وغروبهـا من جـنس الانقـلاب المكـاني، يتبـادر الـذهن إلى الحركـة المكانيـة، فمثلاً: أنَّ الشمس لما طلعـت صـباحًا فمعنـى ذلـك أنهـا كانـت في مكـانٍ، ووصـلـت إلى الأفـق الآن، وهكـذا، فلـما جـاوزت الأفـق ووصلت إلى كبد السماء فمعنى ذلك أنها فارقت المكان الأول الذي نسميه الأفق إلى حيث نسمي منتصف النهار.

ولما كـان هـــذا الانقـلابُ انقلابًـا مكانيًـا يتبـادر الـذهن إلى الحركة المكانية، لا الحركة الكيفية أو الكمية أو الوضعية؛ عـلى هـذا فالانقلاب الوجودي والعدمي يستلزم الحركة الوجودية والعدمية.

فكون شيء مخلوقًا انقلاب وجودي وعدمي؛ لأنَّ المخلوق عبارة عن شيء لم يكن ثم وُجِدَ، وهذا هو الانقلاب الوجودي والعدمي، ولما كانت الانقلابات الأخرى تدل على الحركات المجانِسَةِ لها فكيف لايدل هذا الانقلاب على الحركة المجانِسَةِ له؟ فالانقلابات الأخرىٰ يتضمَّنُها هذا الانقلاب، ويجعلها انقلاباتٍ، ولولا هذا الانقلاب العام المطلق في الانقلابات الخاصة والمقيدة لماكانت هي انقلاباتٍ.

معنى الانقلاب المكاني

معنى الانقلاب المكاني هو أنَّ شيئًا لم يكن في مكان ثم وُجِد فيه، فالوجود والعدم معتبران في الانقلاب المكاني، مما يصير هذا الانقلاب انقلابًا، فوجب أن يعتبر في الانقلاب الأكبر ما في الانقلابات الأخرى، ألا وهو الحركة المجانسة للانقلاب التي ثبتت مجانَسَتُها من البحث المتقدِّم ذكْرُه.

ما هو الزمان؟

الحركةُ المجانسةُ لانقلاب الوجود والعدم هي حركة وجودية وعدمية، ووجب اعتبار الحركة الوجودية في المخلوقات؛ وذلك لأنه كما أنَّ الحركة المكانية يتجدَّد فيها المكان آنًا فآنًا: فيأتي المكان الجديد ويذهب المكان الأول، كذلك الحركة الوجودية يتجدد فيها الوجود آنًا فآنًا: فيأتي الوجود الجديد ويذهب الوجود السابق، مما يستلزم إتيان العدم الجديد كلَّ آنٍ. امتداد الحركة الوجودية هو الزمان؛ لأنه ليس

فوق الزمان شيء يتجدد كالحركات والزمان، مما يؤكّد لنا أنَّ الزمان هو الحركة الوجودية التي هي أولى الحركات وأعلاها، وكيف لا؟ لوكان فوق الوجود شيء لكانت فوق الحركة الوجودية حركة.

مبدأ الزمان والكون ومنتهاهما

على كلٍ فلما وَجَبَ الاعترافُ بالحركة الوجودية فبما أنَّ الحركة يكون فيها العدم أولاً والوجود ثانيًا، كما أسلفت آنفًا، وجب للزمان والكون مبدأ، ولم يجب لهما منتهىً، لأنَّ العدم السابق هو الحد الأول ومبدأ الوجود، وهذا يخالف القدم، ولما كان في جانب الانتهاء الوجود لا العدم لم يجب للزمان والكون منتهىً.

مناط الأمر على المشاهدة لا على العقل

نعم، وليس من اللازم أن يستمر الوجود؛ لأنَّ الأبدية – الدوام في جانب المستقبل – والانتهاء يستويان، ولا يُعَيِّنُ العقلُ أحدهما، فمناط الأمر على المشاهدة أو على ما أراده الخالق من وراء خلق الكون. فكما أنَّ شأن المبنى الجاري بناؤه لايُدْرَكُ بالعقل، وإنما يُدْرَكُ إما بالمشاهدة، وذلك لايمكن إلا بعد وجوده وتمامه، ولا مجالَ للمشاهدة إلا بعد وجوده وتمامه، وإما بإخبار صاحب المبنى، ماذا يريد من وراء بنائه؟ وذلك يمكن قبل وجوده وتمامه. كذلك شأن الكون إلى متى يستمر وجوده؟ إنما يدرك ذلك إما بالمشاهدة، وذلك أمر المستقبل، وإما بإخبار الخالق. ووفقًا لما مرَّ من البحث من أنَّ الله تعالى لايُخْبِرُ بأسراره إلا أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام، فلابُدَّ أن

نؤمن بما جاء الأنبياء عليهم السلام من عند الله من الخبر عن أبدية الكون وانتهائه، وهو أنَّ هذا الكون يفنى في يوم من الأيام ويختفي في ستار العدم، ثم يبعث الله من فيه بعد مدَّةٍ، ويحاسبهم ويجزيهم.

قلة الوقت

كان يلقي الشيخ مثل هذه البحوث الدقيقة في كلمته، حتى انتهى الموعد المحدَّد، فعاد إلى مجلسه، فقام بعده الباندت وفقًا للبرنامج المرسوم، كما قام بعده بعض القساوسة الهنود الذين ألقوا كلمات عقيمة مَجَّتْها أسماع الحضور.

يتعلل الباندت بقلة الوقت

أذكر أنّه آخِرُ من ألقى كلمته هو الباندت، ولما انتهى من توجيه الاعتراض إلى المسيحيين قال مرةً أو مرتين: «لوكان الوقت لرددتُ على كلمة الشيخ محمد قاسم» لا أدري أواقعيا كان فيما يقوله أم محتالاً لِمَا سمع كلمة الشيخ التي أفحمته.

يوجِّهُ الباندت الاعتراض إلى كلمة الشيخ

قال الباندت في آخر كلمته التي انفض عقد الاجتماع بعدها معترضًا على كلمة الشيخ: إن كانت مادة العالم صفةَ وجود الله تعالى لزِم اتصافه بالقبح؛ لأنَّ المخلوقات فيها صالحون وطالحون، ومادة الصالحين والطالحين أمر واحد؛ فلزِم اتصافها بالقبح.

مكابرة الباندت وعناده

فلما انتهى الباندت من اعتراضه بادر الشيخ محمد قاسم إلى

منصة الخطابة وكانت الساعة الحادية عشرة أو كادت، فقال القساوسة: «قد انقضى موعد الاجتماع الآن» فقال الشيخ: قفوا لي عدة دقائق حتى أُبَيِّنَ الردّ على اعتراض الباندت، ولكنهم لم يسمعوا له. فقال الشيخ للباندت: قف أيها الباندت هنيهةً، فقال الباندت: لايسعني أن أقف؛ لأن موعد الغداء قدحَان. فلما رأى أنه لم يرضَ الباندت بالوقوف اضطر الشيخ إلى المنشئ «إندرمن» وأخذ بيده قائلاً: إن لم يرضَ الباندت بسماع ردي على اعتراضه فاسمع أنت وأبلغه به.

يرد الشيخ محمد قاسم النانوتوي على الاعتراض

لقد رَدَدْتُ على هذا الاعتراض في مثالٍ أثناء البحث، إلا أنَّ الباندت لم يبالِ به ووجَّهَ الاعتراضَ استمالةً لأسماع المستمعين، وقد أسلفت أنَّ نسبة المخلوقات إلى الله ووجوده – وهي بمثابة الأشعة من الشمس – كنسبة أشكال نور الشمس المختلفة التي تتشكل بالفتحات والأفنية إلى الشمس وأشعتها. فمن تأمَّلَ في هذا المثال عرف أنَّه كما أنَّ حُسْنَ وقُبْحَ الأشكال المذكورة وما يتصل بها من الأحكام المختلفة يقتصر عليها ولايتعدى إلى الشمس وأشعتها، كذلك حُسْنُ وقُبْحُ المخلوقات يقتصر عليها ولا يتعدى إلى الله ووجوده.

فإن كان نور الشمس مثلَّثَ الشكل فزواياه الثلاث تساوي القائمتين، وضلعاه أطول من الخط الثالث، وكل ذلك لايصل إلى

ذات الشمس وأشعتها. فليس في الشمس وأشعتها زاوية وأضلاع، حتى تجري فيها هذه الأحكام.

على هذا فأحكام أشكال المخلوقات لاتصل إلى الله ووجوده، لأنّه ليس في الله ووجوده أشكال وما يلزمها من الحسن والقبح، فتَصِلَ إليه، فيلزم حسن وقبح الله تعالى.

لن يمكن له أن يردّ عليه إلى قيام الساعة

ثم قال: هذا ردّي على اعتراضه فأبلغه به. فقال المنشئ: «لعلّه يعترض على ردِّك» فقال الشيخ: لن يمكن له أن يعترض عليه إلى قيام الساعة. ثم نهض الشيخ وأصحابه والمنشئ إلى خيامهم.

ما إن خرج الشيخ في الطريق حتى لحقه القس نولس ومعه قس، وقال له: «احضر اليومَ بعد الساعة الرابعة كلمة القس إسكات» فقال الشيخ: طلبت منكم بالأمس ساعةً بعد الساعة الرابعة حتى أبيِّن حقية ديني وفضائله، والسبب في ذلك أنكم ما أعطيتم أحدًا خلال الاجتماع وقتا يبين فيه حقية دينه وفضائله، ولما أعطيتكم اليوم ساعةً خلال الاجتماع، فلا حاجة إلى إلقاء الكلمة بعد الاجتماع. فقال القس: «من فضلك احضر كلمته» فقال الشيخ: نعم أحضر كلمته إن شاء الله وأسمعها.

القس يلوذ بالفرار

سأل القس الشيخ هل تُوجّه الاعترض إلى كلمة «إسكات» فقال الشيخ: أوجّه الاعتراض إذا أذنت لي به، فقال القس: فكم

تطلب من الوقت؟ فقال الشيخ ما معنى تحديد الوقت؟ ومن يَزِنُ ويكيل مطالبه ومقاصده من قَبْلُ، حتى يحدَّدَ لها الوقت، وإنما يُحدَّد الوقت مخافةَ أن يصدّع أحد رؤوس المستمعين، ولا يسمح لغيره بإلقاء كلمته، ولكن اصدقوا لي القول هل أنا أتحدث حديثَ خرافة حتى تحددوا لي الوقت. فقال القس نولس: لا! أنت لا تحدث حديث خرافة. فقال الشيخ: فلماذا تحدِّد لي الوقت؟ فقال القس: حسنًا، لا يُحدَّد لك الوقت.

إلا أنّ قسًا آخر قال: لا! لابدّ من تحديد الوقت، وإلا كلُّ أحد يحدِّث مايشاء ويُسهب، فقال القس نولس: نعطي لك عشرين دقيقةً، وغيرَك عشر دقائق.

شيخ حكيم

قد تقرر كلُّ ذلك في أثناء الطريق، ثم توجهوا إلى خيامهم وقضوا حوائجهم وتناولوا الغداء، بينما كانوا كذلك إذ حضر الشيخ موتي ميان وقال للشيخ محمد قاسم: إنَّ القس نولس كان يثني عليك أطيب الثناء وكان يقول: «إنَّ كلمته كانت قيمةً، إنه ليس بشيخ وإنما هو شيخ حكيم».

كأنَّ على روسهم الطير

كلّما قام الشيخ محمد قاسم في أثناء الاجتماع لإلقاء كلمته عاد المستمعون صامتين كأن على رؤسهم الطير، واذا انتهى من كلمته رفع له معظم المستمعين أصواتهم بالتحبيذ والإشادة.

الفضل في انتصار علماء المسلمين يرجع إلى تواضعه ودعائه

جملة القول أنَّ انتصار علماء المسلمين كان واضحًا جليًّا، لاينكره إلا غير المنصفين من مستمعي الاجتماع، لعلَّ ذلك كان ثمرة تواضع الشيخ ودعاء المسلمين، ومنذ أن قصد الشيخ «شاه جهان فور» مالقي أحدًا أو رآه من أهل الدعاء المستجاب إلا قال له أن يدعو. وكان يقول: إنّ نياتنا وأعمالنا جديرة بأن نَذل ونهان على رؤس الأشهاد، إلا أنّ ذلنا وإهانتا يُسَبِّبُ ذل وإهانة هذا الدين ورسوله، فكان يدعو ويقول: اللهم لاتُذِلَّ دينك ونبيك من أجلنا، وأَعِزَّنَا بفضل دينك ونبيك.

فعّاليات الاجتماع الثاني في اليوم الثالث

ما إن كانت الساعة الواحدة حتى حضر المحاورون والمستمعون مجلس الحوار والمناظرة، وحضره علماء المسلمين على اسم الله وبركته كذلك. قبل أن يبدأ الحوار قال المنشئ «بيارى لال»: «أريد أن يبحث في السؤال الأخير، وأما الأسئلة الأخرى فيؤخر البحث فيها.

.. حتى لايفتضح السر

لم نَدْرِ ما كان سبب ذلك، إلاّ أنَّ المؤشّرات كانت تَدلُّ على أنه قَالَ ذلك اتباعًا للقساوسة، الذين كانوا قد أصروا في الصباح أن يُبْحث في السؤال الرابع، والآن قد استبدلوا السؤال الخامس بالسؤال الرابع حتى لايفتضح السر.

جملة القول أنَّ السؤالين الثاني والثالث كالسؤال الأول يتعلقان بالفلسفة، فاستصعب القساوسة الرّد عليهما، لجهلهم بها، وأما السؤال الرابع والخامس فهما يتعلقان بالدين، وكثيرًا ما يتفق البحث فيه، لذلك أصروا في الصباح أن يبحث السؤال الرابع. ولم يجدوا آنذاك دليلاً لإصرارهم وفرصةً للتآمر مع المنشئ «بيارى لال» فلما وجدوا الخلوة والفرصة فيما بين الساعة الحادية عشرة والساعة الواحدة فلا عجب أن تآمروا مع المنشئ «بيارى لال» وإلا كان المنشئ يقول إلى الصباح أن يبحث في الأسئلة مرتَّبَةً.

دهاء القساوسة

على أنَّ تأييد المنشئ للقساوسة تأييدًا زائدًا، حتى أخذ علماء المسلمين لاسيما الشيخ محمد طاهر والشيخ محمد قاسم يشكونه. علاقةُ المنشئ مع القساوسة علاقةً قلبيةً معروفةً، وتعلقُ الأسئلة المذكورة بالفلسفة، وجهلُ القساوسة بها كلُّ ذلك يؤيد أنَّه كان من دهاء القساوسة.

كان لنا أن نعتذر

على أنَّ قول القساوسة في اليوم الأول مرةً بعد أخرى: «ليس عندنا فرصة، ولانمكث إلا اليوم والغد، يؤيد هذه الفكرة، وإن قال الشيخ محمد قاسم بصراحةٍ: كنّا أحقَّ بهذا القول، فرغم إفلاسنا وقلة بضاعتنا استقرضنا وتركنا أعمالنا وقطعنا مسافةً طويلةً حتى وصلنا الاجتماعَ، ثم عزمنا أن لانبرح حتى يقضي الله بالحق. وأنتم

موظفون لهذا العمل، ولا تعانون صعوبةً في السفر، فما معنى قولكم: ليس عندنا فرصة؟ وقد كنا أحق بهذا الاعتذار.

لم يتأثر القساوسة بكل ذلك أيَّ تأثر؛ لأنّهم رأوا أنَّ اختصار الحوار أسهلُ من الهزيمة دونما عذر، وقد كان علماء المسلمين جرّبوا الأمور، وخبروا النّاسَ في هذا الوقت، فليس من الغريب أن كان رأى البانـدتُ والمنشئ «إندرمن» هذا الرأي. فسكوت المنشئ «إندرمن» من بداية الأمر إلى نهايته وقوله رغم إصرار الشيخ محمد قاسم عليه لشرح كلمة البانـدت: «إني لم أتعوَّد إلقاء الكلمة، ومن تعوَّدوه فهم يفعلونه جيدًا» مما يؤيد هذه الفكرة، على أنهم رأوا – بجانب انتصار علماء المسلمين في السنة الماضية – ذكاء علماء المسلمين وقوة عارضتهم، وسمعو أفكارهم، وغزارة معانيهم.

لعلَّ البانـدت وإن كان قد أشاد بمواهب وقدرات الشيخ محمد قاسم والشيخ أبو المنصور ظنَّ أنَّ علماء المسلمين ليسوا مُلِمِّينَ بالعلوم الدينية، لاشتغالهم بعلوم الفلسفة، فلا عَجَبَ أن يفشلوا في الرد على الأسئلة المذكورة. ولما كنا نحن هم واضعي الأسئلة وحضّرنا الردود عليها نحوزقصب السبق في ميدان الحوار والمناظرة. فقد بارز البانـدت في بداية الأمر، فلما رَدَّ علماء المسلمين على قدم العالم وأثبت مادة العالم عاد صامتًا ساكتًا.

فنظرًا إلى هذه الأسباب ليس من العجيب أن قد أشار البانـدت والمنشئ «إندرمن» بالبحث في السؤال الخامس أو لم يحولا دونه.

على كلٍ فقد رضي علماء المسلمين اضطرارًا بالبحث في السؤال الخامس. وقد استغرق هذا النقاش نصفَ ساعةٍ، وما بقي في الساعة الرابعة إلا ساعتان ونصف، فاقترحوا أن يستمر الحوار إلى الرابعة والنصف. فقال علماء المسلمين: لا بأس! إنا نؤخر اليوم صلاة العصر نصف ساعة.

يُثْبِتُ القس «إسكات» عقيدة التكفير وألوهية عيسى عليه السلام

بَدَأَ الحوار، وأوَّلُ من قام من المناظرين هو القس «إسكات» وعالج السؤال الخامس، وهو ما هو النجاة؟ وما السبيل إليها؟ وألقى كلمةً ضافية القول، خلاصتها: «أنَّ النجاة عبارة عن اجتناب المعاصي. ولما رأى الله تعالى أنَّ العالم غارق في المعاصي، فتمثّل وسمّى نفسه عيسى المسيح فكَفَّر عن عباده جميعًا، أي تحمَّل معاصي بني آدم، فصُلِبَ، ولُعِنَ، ودَخَلَ جهنم لمدة ثلاثة أيام. فوجب على الناس جميعًا أن يؤمنوا بألوهية عيسى عليه السلام والدين المسيحي، ولانجاة بدون ذلك.

الأدلّة على صدق المسيحية

ذات يومٍ دعوتُ عيسى المسيح أن يرحمني، فشعرت بطمأنينةٍ وبشاشةٍ في قلبي لا أكاد أصفها، ثم لم ألتفت إلى أمور أخرى.

وكذلك ذات يومٍ قُلْتُ لرجلٍ سمينٍ ضخم الجثة، كالبانـدت، شرِّير لايسمع للأنجيل، ولا يذهب إلى الكنسية: اسمع للإنجيل

فقال: لماذا أسمع الإنجيل؟ ولماذا أذهب إلى الكنسية؟ فقرأتُ عليه الإنجيل، مما أثّر على قلبه تأثيرًا كبيرًا، فجاءني وتركَ المعاصي كلها، وأضحى صالحًا ورعًا. واشتهر فيما بين النَّاس أنَّ الفلان قد أصبح صالحًا وَرِعًا.

وكذلك كانت الهند قبل أن يحكمها المسيحيون يكثر فيها شن الغارات، وقطع الطريق، والفتن. ومنذ أن حكمها المسيحيون استتب فيها الأمن والسلام، وأصبح مواطنوها مأمونين، وقلَّت المعاصي. وهذا أكبر دليلٍ على صدق الديانة المسيحية».

الباندت ديانند سرسوتي يشرح معنى النجاة

ثم قام الباندت «ديانند سرسوتي» وألقى كلمةً طويلةً خلاصتُها – على ما أخبر من فهم كلمته –: أنَّ النجاة هي أن يجتنب المرء المعاصي ويعمل الصالحات. ومازعم القس من أن الله تمثَّلَ في عيسى المسيح، وكفّر عن جميع عباده محضُ خطأٍ. وكيف يمكن أن يسع الله الذي ليس له حد ولا نهاية، قبضةً من التراب؟. وما ادعى القس من أنَّ ديانته منجاة من المعاصي باطل، لأنَّ الله تعالى كان قد أمر موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه بالوادي المقدس طوى، وأما القس فيعكس الأمر، فيخلع قلنسوته، ويلبس نعليه، ويخالف ما أمر الله أن يفعله. فكيف يمكن النجاة في مثل هذه الديانة؟

الشيخ محمد قاسم

ثم قام الشيخ محمد قاسم وقال: إنَّ النجاة هي التفادي من

غضب الله وعقابه، والسبيل إليها هو الاحتراز عن المعصية لاغير. وهذا يتَوَقَّفُ على معرفة المعاصي. وقد قال الباندت والقس: إنَّ النجاة عبارة عن الاحتراز عن المعاصي، ولكن كلُّ واحدٍ منهما لم يُعَرِّف بالمعصية، وإنّما اكتفى بذكر عددٍ من المعاصي كالزنا والسرقة.

الطاعة والمعصية

فأولاً أعرِّفُ بالمعصية، فاسمعوا! إنَّ المعصية هي ما يكرهه الله ولايرضاه، والطاعة هي ما يُرْضِيْ الله ولايكرهه. إلا أنَّ مرضاتنا وكراهيتنا لايطلع عليها أحد مالم نخبره بها، مهما ألصقنا الصدر بالصدر وشقَقْنا عن القلب، ومالم نخبر أحدًا باللسان أو الإشارة لايطلع على مرضاتنا وكراهيتنا.

رغم كثافتنا وظهورنا، ورغم أننا جسمانيون هذا هو شأننا، وشأنُ الله تعالى أنه غاية في اللطافة، فكيف نطلع على ما في قلبه مالم يخبرنا به، أما العقل فلا يمكن له أن يطلع على ما في قلبه، وكل ما يمكن للعقل أن يفعله هو أن يعرف حسن شيء وقبحه معرفةً يسيرةً.

الله لا يخضع للعقل، والعقل يخضع له

ثم إنه لايعتمد على العقل في هذا الأمر، ولما كان الله هو العليم الحكيم، فلا ينهى عن المعروف ولا يأمر بالمنكر، غير أنه هو الإله لا العبد، والحاكم لا المحكوم، لايخضع للعقل، والعقل يخضع له، فإن أَحَلَّ الزنا وحرَّم الطاعة – فرضًا – كان الزنا طاعةً و الطاعة معصيةً كما قال شاعر فارسي:

«إن طلب مني الدين أن أكون حريصًا على المال فأنا أضرب القناعة عرض الحائط».

على هذا فيجب على العبد أن ينظر إلى الله تعالى في معرفة رضاه من سخطه، ولا يعتمد على العقل في هذا الأمر.

وكما أسلفت أنَّ ملوك الدنيا – على ما يتمعون به من النخوة – لا يخبرون بينات صدورهم كلَّ من هبَّ ودَبَّ من النّاس، والله تعالى – على ما يتمتع به من الكبرياء والغناء الذي يدل عليه ألوهيته – كيف يُخْبِرُ ما في قلبه كلَّ من هبَّ ودَبَّ من النّاس؟ أما الملك والرعية فبينهما قاسم مشترك من مخلوقية وإنسانية. وأما الله تعالى ومخلوقاته فليس بينهما من قاسم مشترك.

سبيل النجاة

كما أنَّ لكل فترة حاكمًا بعينه، مثلاً كان اللورد «نورث بروك» حاكمًا في الفترة الماضية، واللورد «ليتن» حاكم اليوم، كذلك لكل فترةٍ نبيٌ، فكما أنَّه يجب اليوم اتباع أوامر اللورد «ليتن» وأحكامه، ولا يجدي نفعًا اتباعُ أوامر اللورد «نورث بروك» وأحكامه، كذلك يجب اتباع أوامر كلِّ نبي في فترته. إننا نُقِرُّ بنبوة سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام ونُكَفِّر من ينكر نبوتهما كما نُكَفِّر من ينكر نبوة محمد ﷺ، وقياسًا على ذلك نسكت عن السيد «راما جندرا» والسيد «شري كرشنا» وأما سبيل النجاة اليوم فهو اتباع سيدنا محمد ﷺ لا غير.

تتوقف النجاة على اتباع سيدنا محمد ﷺ في هذه الأيام

كما أنَّ هذه الفترة – بعد أن تمَّ تعيين اللورد «ليتن» حاكمًا فيها – إذا أصرَّ أحد على اتباع أحكام الحاكم السابق: اللورد «نورث بروك» لكونه مُعينًا من الحكومة البريطانية كذلك، يُعَدُّ هذا الإصرار خروجًا على الحكومة البريطانية ومعارضة لها، كذلك إذا أنكر أحد اتباع سيدنا محمد ﷺ وأصَرَّ على اتباع من قبله من الأنبياء يعد إنكاره وإصراره نوعًا من الخروج على الله تعالى، وهذا يعني كفرًا وإلحادًا.

وجملة القول أنَّ اتباع سيدنا عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ليس سبيلاً للنجاة في هذه الأيام. لو كان عيسى عليه السلام خاتم الأنبياء والرسل لانحصرت النجاة في اتباعه، ولو كان الأمر كذلك لادعى عيسى عليه السلام الخاتمية سدًّا على الناس باب الضلالة. ولا ينبغي للأنبياء أن يظلوا ساكتين في مثل هذا الوقت ويدعوا النّاس يضلون.

محمد خاتم النبيِّين

يعلم النَّاس جميعًا أنه لم يدَّعِ الخاتمية إلا محمد رسول الله ﷺ، ولو ادَّعى أحد لادعى عيسى عليه السلام، لكنه بدل أن يدعي الخاتمية بَشَّرَ بأنّه «يأتي بعدي سيد العالم» مما اتَّضح بموجب الإنصاف أنَّ السيد الآتي هو خاتم النبيِّين؛ لأنَّ الأنبياء – حسب مراتبهم – سادة لأممهم وحاكمون لهم، وكيف لا؟ لأن طاعتهم

واجبة عليهم؛ فمن كان سيدًا كـان خاتمًـا؛ لأنَّ الملـك آخـر النّـاس حكمًا عند مرافعة القـضية، وهـذا: خاتميتـه في الحكـم لكونـه سـيّدَ الحكام.

دعوىٰ الخاتمية بجانب دعوى النبوة

جملة القول أنّه يجب اتباع محمد ﷺ على العالم بأسره. إنه ادعـى الخاتمية بجانـب دعـوى النبـوة، وأتـى بمعجـزات تتـضاءل دونهـا معجزات غيره من الأنبياء، وقد ذكرت عددًا من معجزاته وفـضلها على معجزات غيره، لاسيما القـرآن، وهـو معجـزة قيمـة لاتعادلهـا معجزة أخرى.

عقيدة ألوهية عيسى عليه السلام باطلة

أما عقيدة ألوهية عيسى عليه السلام فهي عقيدة باطلة لايُسَلِّم بها عاقل. ويؤسفنا أنَّ عقلاء الإفرنج كيف يتورطون في خطأٍ فادحٍ، ويوجِّهـون اعتراضـات سـخيفةً إلى غـيرهم، لا يحتـاج العقـلاء إلى التفكير في الرد عليها، وفي رقبتهم اعتراضات لاقِبَلَ لهم بالرد عليها إلى يوم القيامة.

وا أسفاه! كيـف يقولـون عـن الله المقـدَّس الغنـي المنـزَّه عـن المعايب والنقائص كلها، إنـه تمثَّـلَ عيـسى عليـه الـسلام ونـزل إلى الأرض، وابْـتُلِي بـالحوائج البـشرية مـن الأكـل والـشرب والبـول والبراز والجوع والعطش والفرح والحزن، ويقولون: طـورًا صُـلِبَ على أعواد المشنقة، وطورًا أُسِرَ على أيدي اليهود ونادى «أيـلي أيـلي»

ولُعِنَ وعُذِّبَ وكفر عن غيره وما إلى ذلك. وإذا نادى رجـلٌ القـس «منبوذًا»[1] يقابلونـه بالضرب والقتال.

ما أشدَّ الظلمَ وأكبره! إذا نادى أحد القس بالسوء شَنَّ له الحـرب والقتال، ويسمي الله ما يشاء. ما الفرق بـين القـس والمنبـوذ؟ فـالمنبوذ مخلوق ومحتاج إلى الله له عينان ويـدان وأنـف، يجـوع ويعطـش، يبـول ويتغوط كالقس له عينان ويدان وأنف يجوع ويعطش، يبول ويتغـوط. فهما سواء في الأمور الذاتية. فـإن كـان بيـنهما مـن فـرقٍ ففـي الأمـور الخارجية كالجاه والثروة. فإذا سُمِّيَ القس منبوذاً لايتمالك نفسه –مـع ما بينهما من وحدة– نخوةً و غيرةً. أما البـشر والله تعـالى فلـيس بيـنهما من وحدة، فوجود الله من صنع ذاته ووجود البشر مـستعار منـه، والله معبود والبشر عبد له، مع هذا فما بال عقلاء الإفرنج يـسمون الله تعـالى بشرًا، ولا يخجلون؟ وا أسفاه! كيف يظلمون ولايخافون؟

اجتماع النقيضين

إنّ اجتماع النقيضين والضدين باطل معلوم للنَّاس جميعًـا، مـع هذا يُسلِّمون باجتماع البشرية والألوهية دونما تفكـيرٍ، ومثلـه كمثـل شيء يقال: إنه نور وظلمة، وحار وبـارد، ومـوت وحيـاة، ووجـود وعدم؛ لأنَّ البشرية تستلزم المخلوقية والاحتياج، والألوهية تستلزم الخالقية والاستغناء، فكيف يجتمع هذان الضدّان؟ مـع هـذا يعـضُّ

(١) المنبوذون: طائفة في الهند يتجنبهم المجتمع الهندي ويزدريهم لضعتهم وفقرهم وهو انهم عـلى الله في أصل الخلقة فيما يزعمون. (المعجم الوسيط مادة نبذ)

المسيحيون على معتقداتهم بالنواجذ.

ألوهية نبي افتراء

وإذا نظرنا نظرةَ إنصاف وجدنا أنَّ ألوهية الشيطان وفرعون ونمروذ وشداد – إذا اعتقد بها أحمق – ليس بأبعد عن العقل من ألوهية عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء الآخرين والأولياء الصالحين؛ لأنَّ عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء الآخرين والأولياء الصالحين مازالوا يُقِرُّون بعبوديتهم وعجزهم ويمارسون أعمال العبودية من السجود وما إلى ذلك؛ مما يتضح إنكار الألوهية وضوحَ الشمس في رائعة النهار. نعم! إنَّ الشيطان وفرعون ونمروذ وغيرهم ادعوا الألوهية، ولم يمارسوا أعمال العبودية، فإن اعتقدهم جاهل آلهةً فليس بأغرب بكثير. وأما إذا اعتقد أحد من يقر بالعبودية إلهًا فهذا غريب جدًا.

المسيحيون الصادقون

إنّ المسيحيين في هذه الأيام ليسوا مسيحيين حقًا، وإنما المسيحيون الصادقون هم المسلمون؛ لأنهم يعتقدون بما كان يعتقده عيسى عليه السلام، فيوَحِّدون الله ولا يثلِّثونه كما كان يوحِّده ولا يُثَلِّثُه، ويعتقدونه عبدًا لله كما كان يُقِرُّ بعبوديته وفق ماورد في الإنجيل. كذلك لايسيؤون إليه أيَّ إساءةٍ، ولا يعتقدونه ملعونًا ولا معذّبًا. ومن يعتقد عنه هذا الاعتقادَ يرونه عدوًّا للدين ومارقًا عنه. وأما المسيحيون فهم – مع ما يخالفونه في الاعتقاد – يسيؤون إليه

هذه الإساءآت، ويسمون أنفسهم مسيحيين، فطورًا يرفعونه فيجعلونه إلهاً، وطورًا آخر ينزّلونه فيجعلونه معذبًا في جهنم. إذًا فَلْيُنْصِف القس أنحن نتبع عيسى عليه السلام أم هم؟

علم القس بالعلوم العقلية واستدلاله

وأما ما قال القس من أنَّ الأمن من السُّرَّاق وقطاع الطريق في الهند قبل الحكومة المسيحية فيها كان أمرًا مستحيلاً، ومنذ أن قامت فيها الحكومة المسيحية استتبَّ الأمن والسَّلام، حتى إنك تستطيع أن تسير قاذفًا بالذهب، لايسألك أحد من أنت؟ فأنا أعجب من قوله هذا أشدَّ العجب، ولو قال ذلك غيره لما عجبت هذا العجبَ، غير أنَّ استدلال القس «إسكات» – على علمه بالعلوم العقلية – يدعو إلى العجب العجاب. ومنذ أن سمعت أنّه أَلَّف رسالةً في المنطق، ونال عليها جائزة من الحكومة، مبلغها خمس مائة روبية، كنت أنتظره حتى أراه كيف هو؟ إلا أنه قال مالا يقوله عالم بالمعقولات.

لايصح الاستدلال بالآثار على المؤثر

ألم يقرء القس في كتب المنطق أنَّ الاستدلال الإنِّيَّ استدلال ناقص، فالتالي لاينتج المقدم، والآثار لايُسْتَدَلُّ بها على المؤثر، فإذا وجدنا الحجر حارًا لانستطيع أن نقول: إنه أصبح حارًّا بالنار، لأنه من المحتمل أنه كان قد أصبح حارًا بالشمس.

جملة القول أنَّ الأثر يحتمل العموم، فلا يُستَدل به على مؤثر

خاصٍّ. فإذا كان الأمر كذلك فكيف قال القس: إنَّ الأمن والسلام في الهند هو بسبب الحكومة المسيحية؟ لا، إنَّ علَّةَ الأمن والسلام هي المحافظة على الحكومة والرغبة في التجارة لاغير. ولا علاقةَ له مع الدين. ونحن ندعي أنه استتبَّ الأمن والسلام في عهد الخلفاء الراشدين بشكل لم يكن قبله ولا بعده. فإن كان هذا دليل صدقٍ على دينٍ فالدين المحمدي كان أحق وأجدر.

المعاصي لاتنحصر في السرقة واللصوصية

على أنَّ المعاصي لاتنحصر في السرقة واللصوصية، حتى يقال إنَّ الأمن منها حصل بفضل الدين المسيحي. قد حُرِّم أكل لحم الخنزير في التوراة والإنجيل، ونحن ندعي أنه ليس أحد من المسلمين يأكل لحم الخنزير، فيُتَّهمَ بارتكاب هذه الجريمة. وأما النصارى فلعل واحدًا منهم لم يحترز عن هذه المعصية. كذلك فقد حُرِّم شرب الخمر في التوراة والإنجيل، ونحن ندعي أنَّ عددًا قليلاً من المسلمين يشربون الخمر، وأما النصارى فأكثرهم يشربونها.

كذلك فقد كثر الزنا في عهد الحكومة المسيحية كثرةً فاحشةً، وأما لندن وإنجلترا فحدِّث عنهما ولاحرج. ألم يأتِ القس نَبَأُ صحف لندن؟ يُنشر فيها أنَّ مئآتٍ من أولاد الزنا تولد كل يوم، وتلقى على جوانب الطرق. أليست هذه معاصيَ؟ وقس على هذا أمورًا كثيرةً، جاء النهي عنها في التوراة والإنجيل، ويمارسها النصارى. على هذا فكيف يقول: إنه توقفت السرقة واللصوصية في

الهند بفضل الدين المسيحي، لكون تأثيره أن يحترز المرء عن المعاصي.

القس محي الدين

قد استغرقت هذه الكلمةُ الفترة المحددة، فعاد الشيخ إلى مجلسه، ثم قام القس محي الدين البيشاوري والتفت إلى الشيخ قائلاً: «قد ألقيت كلمةً بالأمس، وشدّدت فيها، وكذلك اليوم شدَّدت في كلمتك».

معنى ذلك أنه قد كان شبَّه الشيخ الزيادات في الإنجيل – إثبات التحريف فيه – بالبول والبراز، وشبَّه اليوم القس بالمنبوذ، فلعلّ الشيخ ردّ عليه جالسًا: هذا ليس إساءة أدب، المثال المفترض لايكون إساءة أدب.

كلمة فارغة يلقيها القس محي الدين

هذا وقد قال القس بعدما شكا إساءة الأدب، واثَّأر منها عابِسًا، وقائلاً: إني أُجِلُّكَ لكبرسنّك: «أنت توجِّه الاعتراض إلى ألوهية عيسى عليه السلام» انظر كتاباً من الكتب الموثوق بها لدى المسلمين، وهو روضة الأنبياء لصاحبه رياض الدين الرومي الذي أثبت فيه ألوهية عيسى عليه السلام بشكل جيد» ثم ذكر نصًا عربيًا لم يكن صحيح الألفاظ والإعراب، ولا مترابط الكلمات، وقد سماه حديثًا.

لايحضرني الآن ذلك النص برمته، غير أني أتذكر أنه قال في أول الأمر: عبد الله بن عُمْرٌ (بضم العين وتنوين الراء) حتى ضحك العارفون بلغة الضاد، فذكر نصًّا خلاصته: روى عبد الله

بن عمر عن أبيه أنه قال لرجلٍ: إني سمعت الرسول ﷺ، أنـه قـال: لايُسْجَدُ غيرُ الله إلا آدم وعيسى. فقالوا: لِمَ؟ يارسول الله! فقـال: في آدم صفة الألوهية؛ لذلك سَجَده الملائكة، وأما عيسى فقـد قـال الله تعالى عنه: «إنَّ مَثَلَ عيسىٰ عِنْدَ الله كمثل آدم»(١) ممَّا عُلِمَ أنَّ في عيسى صفة الألوهية، فَيُسْجَد له، ولو كنت بين يديه لسجدت له.

عيسى (عليه السلام) إنسان كامل ومعبود كامل

وهكذا ألقى كلمةً فارغةً، ثـم قـال: إنـا نعتقـد عيـسى إنـسانًا كاملاً ومعبودًا كـاملاً، ففيـه صـفتا الإنـسانية والألوهيـة كـاملتين، فقداسته وغناؤه من جهة الألوهية، وأما احتياجه إلى البـول والـبراز والجوع والعطش وغيرها من الأمور المضادَّة للقداسـة فمـن جهـة الإنسانية، لامن جهة الألوهية.

وقد أخبر بعض من حضر الاجتماع أنَّ هذا القس نفـسه قـال: مثل ألوهية عيسى كمثل قطعة حديد محمرة بالنار؛ فهي تـصير نـارًا كذلك، ولايحضر كاتبَ السطور من أخبره بذلك.

الشيخ محمد قاسم يرد والقس محي الدين يُصِيْبُه الخجل

على كلٍ فقد قال القس محي الدين في كلمته ما وسعه أن يقول، ثم عاد إلى مجلسه. قـام الـشيخ محمـد قاسـم وقـال في بدايـة الأمـر: رياض الدين الرومي المذكور يكون مثلك (محي الدين البيـشاوري) أنت تشبه المسلمين صورةً وهيئةً وطولَ لحيةٍ، وزيًّا واسمًا، فـإذا رآك

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

أحد وسمع اسمك يحسبك مسلمًا، وهو – رياض الدين الرومـي – يكون مثلك كذلك.

قد انطبق هذا على القس محـي الـدين كـلَّ الانطبـاق، فأصـابه الخجل.

القساوسةُ لايُنْصِفُوْنَ

ثم قال الشيخ محمد قاسـم: المسلمون لايعرفـون هـذا الكتـاب ولاصاحبه، ولو كانَ آية من القرآن أو حديثاً من الصحاح الستة لكـان صوابًا. فما أَكْبَرَ الظلمَ وما أبعد عن الإنصاف! أنه زَوَّر روايةً وبارز بهـا علماء المسلمين، فإن كان أسلوبكم أنكم تختلقـون روايـةً وتعزونهـا إلى إحدى الشخصيات الدينيـة وتبـارزون بهـا فالمسلمون يـستطيعون أن يتبعوا هذا الأسلوب بشكلٍ جيدٍ.

فإن كان القس يعزو هذه الرواية إلى سيدنا محمـد ﷺ، ويُثْبِـتُ بها ألوهية عيسى عليه السلام، فنحنُ نُثْبِـتُ نبـوَّة محمـد ﷺ بوثـائق إنجيل «برنباه» التي جاءت فيها البشارة بنبوته ﷺ.

فجملة القول أنـه إن كانـت الروايـة المـذكورة تثبـت ألوهيـة عيسى عليه السلام فآية البشارة في إنجيل «برنباه» تثبت نبـوة محمـد ﷺ، وهل مـن العـدل أن يُلْزِمُونـا ويُفْحِمُونـا بالروايـة الموضـوعة ويرفضوا إنجيل «برنباه» كلَّ الرفض.

رواية موضوعة

على أنَّ هذا النصَّ بنفسه يدل على كون الروايـة موضـوعةً، فلـم

تكن ألفاظها صحيحةً ولامعانيها سديدةً، ولايجدر بأهل اللغة أن ينطقوا بكلام فارغ، فتلك رواية موضوعة لاشبهة فيها، فإن كانوا يريدون أن يُلْزِمُونا ويُفْحِمُونا فليقدموا آية من القرآن أو حديثًا من الصحاح الستة وغيرها من الكتب الموثوق بها المشهورة. أما الكتب الموثوق بها المشهورة لدينا فقد جاء فيها النهي عن السجود لغير الله، ودعوى عبودية سيدنا عيسى عليه السلام بشكل صريح واضح معلومة لدى جميع الناس. وليس دين من الأديان إلا وهو يعرف عقيدة المسلمين هذه، وشهادة كتبهم عليها.

فالقرآن وكتب الأحاديث التي هي مرجع معتقدات المسلمين حافلة بنصوص عبودية عيسى وعدم ألوهيته، فكيف يطرح القس هذه الرواية؟ ألم يكن له معرفة بما جاء في إنجيل برنباه؟

كون عيسى عليه السلام ذا الجهتين يخالف العقل

وأما ما قال القس: عيسى ذوالجهتين: إنسان كامل ومعبود كامل، فاحتياجه إلى الأكل والشرب والبول والبراز، وإصابته بالمرض والموت من جهة الإنسانية. وغناه وقداسته من جهة الألوهية، فهذا كلام فارغ لايقبله عاقل.

الابن لايكون أبًا والأب لايكون ابناً، كذلك العبد لايكون إلـٰهًا والإله لايكون عبدًا، والعابد لايكون معبودًا والمعبود لايكون عابدًا؛ فإن كان ذلك مستحيلاً فهذا مستحيل كذلك. فإن سَلَّمنا – ولو فرضًا – باجتماع الإنسانية والألوهية في عيسى عليه

السلام، فإذن يكون عيسى عليه السلام إنسانًا وإلـٰهًا، وتكون إنسانيته وألوهيته حقيقيتين، فمعايب الإنسانية كلها تلحق بجهة الألوهية،ويكون مثل ذلك كمثل قميصٍ هو دِثَارٌ وثوب معًا، فإذا تنجّس الدثار تنجس الثوب، كذلك إذا تنجس الثوب تنجَّسَ الدثار.

كذلك إذا سلمنا – ولو فرضًا – باجتماع الإنسانية والألوهية في سيدنا عيسى عليه السلام تلحق معايب الإنسانية بالألوهية، ولاتكون هي بمنجاة منها.

الإله واحد لا متعدد

هذه ردود على ما أيقنت أنَّ قائله هو القس محي الدين. وأما ما أَشُكُّ في قائله: «مثل ألوهية عيسى عليه السلام كمثل قطعة حديد محمرَّة بالنار، فتصير نارًا» سواء كان قائله القس محي الدين أم غيره، فقد قال الشيخ محمد قاسم: هذا المثال يُثْبِتُ أنَّ الإله واحد، لامتعدد.

وذلك أنَّ قطعة الحديد المحمرة تبدو لأصحاب الظواهر كالنار، غير أنها في الحقيقة قطعة حديد، ولاتصير نارًا، وإنما يتغيَّر لونها بانعكاس النار. ولذلك إذا أخرجناها من النار تعود إلى سيرتها الأولى، ولو صارت نارًا حقيقةً وكانت كالجمرات لكانت في الحالتين سواء.

لايجرؤ القس

لعلَّ هذا هو الاعتراض الذي سمعه الشيخ محمد قاسم

ونهض من كرسيه قـائلاً: «ألا إن القـس ينكـر التثليـث الآن» وأنـا أعلم أنّ السبب في ذلك هو الذي ذكرناه آنفًـا، ثـم عـاد الـشيخ إلى مجلسه، غـير أنَّـه لم يجـرُء أحـد مـن القـساوسة عـلى أن يجيـب عـن الاعتراضات أويـرد على الإجـابـات التـي سـمعوها مـن الـشيخ محمد قاسم.

كلام تمجُّه الأسماع

نعم! كلُّ ما كان هو أنَّ القس قام وبَيَّن فـضائل دينـه بـصوتٍ جهوري، أو أعاد ما قاله سابقًا بأساليب وعبارات أخرى، فـما قـال شيئًا جديدًا، فضلاً عن أن يجيب عن الاعتراضات. فـما قـال إلا مـا مجَّته الأسماع.

الباندت يعترض على وجود الشيطان

وهنا يجدر بالذكر أمران، وقد نسيت زمنهما ومكانهما، غير أنهما بقيا لاصقين بذاكرتي، أحدهما أنه ذكـر أحـد القـساوسة في إحـدى الجلسات الصباحية أو المسائية، الشيطانَ، فقال البانـدت: إنَّ ملـوك الدنيا إذا دخل بلادَهم لصٌ أو نَهَّابٌ أمروا بـالقبض عليـه وقتلـوه، فإذا كان أمر ملوك الدنيا كذلك فما ظنُّك بـالله؟ فهـل يـدع نَهَّابـاً أو قاطع طريق على دينه حُرًّا طليقًا؟ فلوكان الأمر كذلك – ولو فرضًـا – لقبض عليه فضلاً عن أن يعينه لإفساد دينه.

القس نولس يرد على الباندت

ثم قال القس «نولس»: إن كان الباندت ينكـر وجـود الـشيطان،

فهذا يعني أن المساوئ كلها يمارسها الله تعالى بدوره، أو على الأقـل أنـه خَلَقَ إنسانًا يمارس المساوئ. فـإذا أنكرنـا وجـود الـشيطان، واعتبرنـا المساوئ للإنسان ذاتيةً، فتمتد المساوئ امتدادًا، ويجـب القـول بـأنّ الله هو خالق المساوئ.

يُسَائل الباندت أين الجنة؟

وثانيهما الذي نسيت وقته، فلم يتفق لي أن أكتبـه، وهـو جـدير بأن يكتب، وهـو أنَّ واحـدًا مـن القـساوسة ذكـر الجنـة في كلمتـه، فساءَلَ الباندت أين الجنة؟

تعنُّت القساوسة وعنادهم

فأجاب الشيخ محمد قاسـم وهـو جـالس إن أعطيـتم لي فرصـةً، فأخبركم بإذن الله أين الجنة. غير أنه لم يجد بعدُ فرصةً. فلما أنهـى القـس نولس كلمته، وقـام الـشيخ محمـد قاسـم مـارسَ القـساوسة عنـادهم وتعنُّتهم بشكلٍ لايُوْصَف.

علماء المسلمين ينتصرون

وتفصيل ذلك أنه لم تكن الساعة الرابعة حتى الآن، وكـان قـد بقي وقت لا بأس به. ولما كانت قد ضاعت نـصف سـاعة في بدايـة الاجتماع في السؤال المبحوث عنه، كان قد تقـرر أنـه يوسـع نـصف ساعة بعد الساعة الرابعة، وقد قال المسلمون: إنهـم يـصلون عـصر اليوم في الساعة الرابعة والنـصف. وقـد كانـت نـصف سـاعة مـن الموعد المحدد باقية حتى الآن، رَغم ذلك نهض القـساوسة قـائلين:

قد انتهى الموعد المحدد للاجتماع، وقد اقترح الشيخ محمد قاسم والشيخ موتي ميان وغيرهما من علماء المسلمين وأصروا على أن يعطوا بضع الدقائق الباقية من الساعة الرابعة، حتى نقول نحن المسلمين فيها شيئًا، غير أن القساوسة لم يرفعوا لنا رأسًا.

ثم إنَّ انتصار علماء المسلمين وغلبتهم قد ظهرت بالكلمات التي ألقوها، غير أنَّ إصرار علماء المسلمين وإنكار القساوسة كان كمثل جيش العدو الذي وَلى مدبرًا.

ومن الطريف أنَّ مشاعر الخوف والحزن التي تجيش بها صدور القساوسة أدَّت بهم أن يولوا مدبرين تاركين كتبهم.

فحينئذٍ لم يجد القساوسة حيلةً للخلاص إلا أن ينهضوا، وانتهز علماء الهندوس الفرصة، فنهضوا معهم كذلك. وقد صار ذلك أكبر دليل وأكمله على غلبة علماء المسلمين وانتصارهم في أنظار عامة الناس وخاصتهم.

القساوسة يثيرون جلبةً وضوضاء

فلما رأى الشيخ محمد قاسم أن القساوسة لايكادون يرضون، قال: إن كنتم لاترضون فأنا ألقي كلمتي، إلا أنّ القساوسة أخذوا يثيرون جلبةً وضوضاء لفض عِقْد الاجتماع، فمنهم من كان بيده الإنجيل، ومنهم من كان يتجاذب أطراف الإنكار والإصرار، فرأى الشيخ أنّه لاينبغي التأخير في صلاة العصر، فذهب ليصلي العصر، ثم عاد وقام عند منصة الخَطابة، فاجتمع الناس حواليه.

ثم قال الشيخ في بداية الأمر: قد حاولنا كثيرًا أن يسمع القساوسة شيئًا من كلمتي، ولكنهم لما رأوا أنه لايمكن الانتصار على علماء المسلمين ففعلوا ما فعلوا. ثم قال: يعرف الحضور في الاجتماع كلَّ المعرفة أن اعتراضات علماء المسلمين لم يُجِبْ عنها أحد، وأما علماء المسلمين فقد ردّوا على الاعتراضات التي وُجِّهتْ إليهم ردًّا مفحمًا. وقال: قد ثبتت بموجب الإنصاف نبوَّة محمد ﷺ، ولم يبق لأحد عذر بموجب الإنصاف.

القساوسة يفزعون

وأثناء كلمته ردَّ على كلمة القس الذي كان قد أعادها، ولما كانت الردود تشبه تلك الردود التي كان قد ألقاها الشيخ فأضرب عنها صفحًا خوفًا من التطويل. وقد كانت القساوسة تركوا كتبهم فزعًا، فحضر القس «جان طامس» ليأخذ كتبه، فقال لهم الحضور: أيها القس! «لماذا فزعتم حتى تركتم كتبكم».

يثني النَّاس على الشيخ محمد قاسم

غادر الشيخ بعد ما انتهى من كلمته، والنَّاس يثنون عليه ويُسَلِّمون. وقد رأى كاتب السطور أنَّ الهندوس قال بعضهم: واهًا أيها الشيخ ! وقال آخرون منهم: سلام عليك أيها الشيخ. وكانت غلبة علماء المسلمين وانتصارهم واضحةً جليةً.

ثم رأيت أنَّ القساوسة قد استعدوا للرحيل، ولم يفوا بوعد استمرار الاجتماع إلى الساعة الرابعة. كما تَوَجَّهَ «البانـدت» والمنشئ

«إندرمن» تلقاء «تشاندا فور» فاضطُرَّ علماء المسلمين أن يغادروا ولم يروا حاجةً إلى القيام؛ لأنَّ الصحراء كان يُخْشى فيها كلُّ نوعٍ من أنواع الأذى والمكروه، وكانوا يخشون فيها نزول المطر والبرد.

ضيافة الشيخ محمد طاهر

غادرنا عند الأصيل، ونزلنا بمنزل الشيخ محمد طاهر تحقيقًا لرغبته، فأكرم وفادتنا وبالغ في ضيافتنا حتى لاننساها. وبينما في الصباح كان الشيخ محمد قاسم والشيخ محمد علي يضمهما مجلسٌ واحد، إذ حضره رجل من المسلمين، لا أعرف اسمه، غير أنّ أسلوب لقائه كان يَنِمُّ عن أنه كان بينه وبين الشيخ محمد علي سابق معرفة وآصرة مودَّةٍ. وكان معرض «تشاندافور» حديث المجلس، فشاركه قائلاً: كان القاضي يقول: حضرت الاجتماع في اليوم الأول عندما كان الشيخ يلقي كلمته في موضوع النبوة، وقد أعجبتني إعجابًا شديدًا، ثم أفحم القس إفحامًا، لن يجرؤ بعده إذا كان به غيرة وحياء. ومما أقضي العجب أنه لم يجْرِ لقاء بيني وبينه قط، فكيف عرفني، حتى كان يقول مشيرا إليَّ مرة بعد أخرى: «أيها القاضي أنت الحكم فينا».

لم يبق مثل علمه الآن

لعل القس صادف الشيخ عبد المجيد في اليوم نفسه في السوق، فقال له الشيخ: أيها القس لماذا لم تقل شيئًا – أثناء إلقاء كلمتك – تقبله العقول؟. فقال: إني لم أجد فرصةً. ثم قال عن الشيخ محمد

قاسم: إنه ليس شيخًا، وإنما هو شيخ متصوف. ولم يبق مثلُ علمه في المسلمين، وقال: «لايُبَارِي أحدٌ علماءَ المسلمين في علم الإلٰهيات»

وفي اليوم نفسه لعلَّ الشيخ محمد قاسم قال للشيخ محمد علي: لماذا لم يَجْرِ الحوار بينك وبين المنشئ «إندرمن»، وكان ذلك حسرةً في القلوب لم تُقْضَ، فإن سمحت فأرسل خطاباً عن طريق الشيخ محمد طاهر إلى المنشئ «إندرمن» بهذا الشأن.

فقال الشيخ محمد علي: إني بدأت الحديث في قضية قِدَم العالم، وهي من أهم عقائد المنشئ «إندرمن» التي بُنِيَتْ عليها عقيدة التناسخ، وهي من العقائد اللازمة لديه. ولكنه لم ينبس ببنت شفة. وكلمةُ الباندت هي الأخرىٰ تدل على بطلان قدم العالم وآراء المنشئ إندرمن التي جاءت في كتاب «تحفة الإسلام» وليست الآن حاجة إلى الحوار معه. فإن شئت فاكتب إليه رسالةً حتى يحضر في «شاه جهان فور» وأنا ماكث فيها؛ لأنه يمر بها إلى «مراد آباد».

يقول المثل الأردي السائر:

من يرى الطاووس إذا رقَصَ في الصحراء؟

أرسل الشيخ محمد طاهر رسالةً جاء فيها: «احضر مع الباندت وتتفضل بقبول دعوتي، حتى يجري الحوار بينك وبين الشيخ محمد علي» إلا أنه أبى أن يحضر «شاه جهان فور»، ولما كان الإباء الصريح يؤدي إلى إهانته رَدّ على الرسالة: بل استصحب أنت

الشيخ واحضر «تشاندا فور»، فكتب إليه الشيخ محمد طاهر بعدما استشار الشيخ محمد قاسم والشيخ محمد علي: من يرى الطاووس إذا رقص في الصحراء؛ فقد فُضَّ عقد النّاس، ولم يبق هنا من يسمع الحوار ويتمتع به. وقد كنت تقول: «إني أمكث يومًا أو يومين في «شاه جهان فور» ثم أغادر إلى «مراد آباد» فإن عُقِدَ هذا الاجتماع أثناء رحلتك إلى مراد آباد كان أحسنَ وأفضلَ، ويحضره عدد كبير من النّاس، لكونه في المدينة. غير أنه استمر في إبائه حتى قال: «إني لن أحضر منزلك» لوكان «كنكا برشاد» الذي سيتم نقله محافظاً إلى «شاه جهان فور» لنزلت منزله، وإني أقابل الشيخ محمد علي في مراد آباد وأجري معه الحوار والنقاش فيها.

فلما تكَرَّر الإباء وسمعه المتوافدون من مدن: ديوبند، وميروت، ودهلي، وخورجه، وما إليها، الذين كانوا قد حضروا رغبةً في سماع المناظرة والمناقشة، ومكثوا لهذه المراسلة، شدُّوا رحالهم إلى أوطانهم. وقد قال بعضهم للشيخ محمد قاسم: إنك قلت للباندت حينما قال: ليخبرني أحد أين الجنة؟ فقلت له: أنا أخبرك إذا أتيحت الفرصة، ولما كان الوقت ضيّقا، لم يتفق أن تُبين، فماذا بيَّنْتَ لوبَيَّنْتَ.

تساؤل: أين الجنة؟ يجيْبُ عنه الشيخ محمد قاسم

فقال الشيخ: ألا فاسمعوا الآن. إنا نرى في الدنيا أنَّ الملذات لاتخلو عن المشقات، والمشقات لاتخلو عن الملذات، والمنافع لاتخلو

عن المضار، والمضار لاتخلو عن المنافع، فأكل الطعام وشرب الماء من الملذات والمنافع، غير أنهما تتبعهما مفاسد البول والبراز ومضار الأمراض والأسقام؛ والأدوية المرّة والافتصاد والجراحة من المتاعب والمشقات، غير أنها تؤدي إلى أنواع من الراحة والطمأنينة، ثم نرى أنَّ هذه الأشياء - لكونها مشتملةً على الراحة والأذى والنفع والضرر - كالمركبات العنصرية المشتملة على الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة. فالأشياء المتضادة تُشَكِّل مزاجًا مركبا، كالمركبات العنصرية التي تبدو فيها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وإلا من رأى الله يركب المركبات العنصرية؟.

فلما نظرنا في أجسامنا ووجدنا فيها اليبوسة في قليل أو كثير، عرفنا أنَّ في أجسامنا عنصر التراب، وإلا لما كانت فيها يبوسة؛ لأنّ اليبوسة خاصة التراب، هي تُوجد فيه، ولا تُوجد في غيره. فما في أجسامنا من اليبوسة هو من آثار عنصر التراب.

كذلك وجدنا في أجسامنا الرطوبة، وهي خاصة الماء، فعرفنا أنَّ فيها عنصر الماء، وقِس على هذا الهواء والنار.

الجنة مصدر الراحة وجهنم منبع المشقة

ومن الواضح أنَّ اليبوسة والرطوبة وأصولهما التراب والماء ضدان يفترقان، كذلك أصل الراحة يختلف عن أصل المشقة، فكما أنَّ المركبات العنصرية تتفاوت في الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة لكونها متفاوته في الماء والتراب وما إليها، كذلك مركبات

الراحة والمشقة لها أصول يَختلف بعضها عن بعض.

فإذا أخذنا مركبات الراحة والمشقة وجدنا لكل واحد منهما – الراحة والمشقة – أصلاً بعينه، مثل الماء أصل للرطوبة وحدها، والتراب أصل لليبوسة لا غير. بناءً على ذلك فقد يجب أن نُسَلِّم في مركبات الراحة والمشقة أصلاً هو الراحة كلُّ الراحة، وهذا ما نسميه «الجنة» كما قال الشاعر الفارسي: الجنة هي ماليس فيه مكروه وأذى، وأصلا هو الأذى كلُّ الأذى، وهذا هو مانسميه «جهنم».

جملة القول أنّ الرطوبة واليبوسة من كيفيات الجسم لها أصل بعينه، وطبقة بعينها كذلك الراحة والمشقة لها أصل بعينه وطبقة بعينها.

سؤال «أين» خاطئ

وأما سؤال «أين» فغير جدير بالاستماع عقلاً؛ لأنَّ وجود شيء لايستلزم أن نعلمه، ففي الأرض آلاف من الأماكن والأشياء لانعملها، فإن كانا – الجنة وجهنم – داخل الأرض أو السماء ولا نعلمهما فليس بغريب، وإن كانا خارجهما فليس بمستحيل كذلك.

وجود الشيطان والملائكة

بجانب ذلك، دلَّلَ الشيخ على وجود الشيطان والملائكة، وتفصيل ذلك أنَّ الإنسان لايميل إلى فعل الخير دائمًا ولا إلى ممارسة الشر دائمًا، وإنما يميل إلى فعل الخير حينًا وإلى ممارسة الشر حينًا آخر، فاختلاف ميله يدل بوضوحٍ أنَّ مزاجه الروحي يتألف من عنصرين

متضادين، وإلا صدور كيفيتين متضادتين من شيء واحد مستحيل استِحَالَةَ صدور اليبوسة والرطوبة من عنصر التراب أو الماء. فكما أنه يجب أن يجتمع عنصران إذا اجتمع الأمران: اليبوسة والرطوبة، كذلك هنا يجب أن يجتمع عنصران وأن يكون لكل واحد منهما أصل خاص وطبقة مستقلة إذا اجتمعت الكيفيتان المتضادتان: الميل إلى فعل الخير والميل إلى ممارسة الشر.

على هذا فيجب أنْ نُسَلِّم بأنَّ هنا مخلوقًا خاصته الميل إلى فعل الخير. وهؤلاء هم الملائكة، ومخلوقًا آخر خاصته الميل إلى ممارسة الشر، وهؤلاء هم الشياطين.

هذا وقد ثبت – مما تقدَّم – وجودُ الجنة والنار والملائكة والشيطان. وأما القول – بعد ما عُلِمَ هذا كله – بأنَّ الاعتراف بوجود الشيطان يعني أنَّ الله تعالى أطلق في بلاده لصًّا أو نهّابًا فمثله كمثل رجلٍ يقول نظرًا إلى مضار الماء والهواء والتراب والنار، والآثار الدالّة عليها من الرطوبة والحرارة وما إليهما: لو كان في جسم الإنسان نار فقد فعل الله كرجلٍ بنى كوخًا ثم أحرقه بالنار، فلا يؤيد العقل هذا ولا القياس ذاك.

وجملة القول أنه لاينبغي للعاقل أن يَشُكَّ في وجود العناصر بالرغم من الآثار الدالّة عليها، كذلك لاينبغي للعقلاء أن يشكوا في وجود الملائكة والشياطين بالرغم من الآثار التي تدل عليهما. قد جاء تركيب الجسم الإنساني من العناصر المتضادة التي يعترف بها

الطبع السليم، وقد أدّى هذا التركيب إلى نتيجةٍ طيبةٍ وهـي «المـزاج المركـب» الـذي يُظهـرُ آثـارًا عجيبـةً لاتُحـصى، وهـي ملموسـة في الحيوانات، كذلك اعتبارُ الملائكة والشياطين في تركيب العالم يـؤدِّي إلى نتائج طيبة لاتحصى.

وكيـف لا؟ فكـل شيءٍ حسنٍ جميـلٍ يتـضمن حَسَنَ الأمـور وقبيحها، فالمنزل الطيب هو الذي فيه المرحاض، وإن كان فيه جميـع الأشياء سوى المرحاض، وقبحه أظهر و أبـين كـان المنـزل ناقـصًا. والرجل الجميـل هـو الـذي لـه عينـان وأنـف وخـدان وحاجبـان وأهـداب وشـعر ولحيـة وشـاربان، وقـبح سـواد الـشعر واللحيـة والأهـداب أظهـر وأبـين، ولـولا اللحيـة والحاجبـان والأهـداب والشعر لكان جماله ناقصًا. فإذا كانت صغار الأمور هـذه تحتـاج إلى الشيء وضده وحـسن الـشيء وقبحـه فكيـف لايحتـاج هـذا العـالم الواسع الأرحب إلى اجتماع الحسن والقبح، وإلا فمـن أيـن جـاءت فيه المساوئ؟ ولماذا ظهرت فيه المشقات؟

جملة القول أنَّه ينبغي أن يكون الحسن والقبح والراحة والمشقة في العالم، والآثار تدل على أنها وُجِدَت هـذه الأشـياء فيـه، فتوجيـه الباندت مثل هذا الاعـتراض إلى القـس لايكـون صـوابًا عنـد أولي العقل والإنصاف.

تنطق إلهة العلم على قلبه

هذا وقد مرَّ الشيخ وزمـلاؤه بـسوق «شـاه جهـان فـور» فكـان

أصحاب المحلات التجارية من الهندوس يشيرون إليـه بالبنـان. وكـان الشيخ ذو الفقار علي الديوبنـدي نائـب المفـتش للمـدارس الحكوميـة يقول: في مدينة سهارنفور رجل اسمه «ليكهـرام» لـه وَلَـعٌ بـالبحوث الدينية، ومراسلة مع المنشئ «بيارى لال» وقد حضر الاجـتماع بنفـسه، فلقيته بعد ما عاد من الاجتماع، فحكى هو لي من مـداولات الاجـتماع مثل ما حكى علماء المسلمين، وقال: كان شيخ يُدعى «قاسم علي» مـن هذه المنطقة لاتسأل عن حاله، فقد كانت «سرسوتي» – إلـٰـهة العلـم – تنطق على قلبه.

ومن هنا علمنا أنَّ «سرسوتي» كلمة سنسكرتية معناها «إلـٰـهة العلم».

انتصر، «بتهان»

وقد روى بعض من حضر الاجتماع من أهالي «شاه جهان فور» أو معارفهم الذين عادوا بعد انتهاء الاجـتماع في اليـوم التـالي: «كـان غوغـاء الهنـدوس يقولـون في الطريـق: انتـصر «بتهـان» (المـسلمون الأفغان). ولما كانت مدينة «شاه جهان فور» معظم المسلمين فيها هـم «بتهان» ولذا اشتهرت هي بمدينة «بتهـان» وكـان غوغـاء الهنـدوس يحسبون المسلمين الذين حضروا الاجتماع «بتهان».

رجاء كاتب السطور

والآن يقول كاتب السطور: إنه سجَّلَ مداولات الاجـتماع مـا وسعه أن يُسجل دون نقص أو زيادة. وما كـان يـستنبط مـن كلمـة

أحدٍ وما أتيحت الفرصة لذكره كتبته في الهامش. غير أنه لم يحـضرني ألفاظ الكلمات بأسـرها؛ فلم أقيّدها بألفاظها، ولا أثق بترتيبها، فلا عجب أن يتطرق إليها التقديم والتأخيــر. وقــد قلت ذلك إخبـارًا بالواقع، حتى لايشك أحد ولايرتاب. وكل ما قيَّدتـه لم أتعَمَّـد فيـه الزيـادة أو النقـصان. وآخـر دعوانـا أن الحمـد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمـد وآلـه وصـحبه وأهـل بيتـه وأزواجه أجمعين.

❋ ❋ ❋

فهرس الكتاب

❋ ❋ ❋